
خيري شلبي
موت عباءة
رواية

الأعمال الإبداعية

خيرى شلبى

وت عباءة



2000

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة ٢٠٠٠ الأسرة

موت عباءة

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني. حدوتة الديك عام ١٩٨٥، (قطاع)

التقنية: ألوان زيتية على قماش

المقاس ٥٧ × ٤٤سم

عطية حسين (١٩٣٨ - ....)

مصمم جرافيكي وفنان تشكيلي، تخرج في كلية الفنون الجميلة بالأسكندرية عام ١٩٦٣، وشارك في الحياة الفنية منذ تخرجه. تزدحم لوحاته بالعناصر السيريالية الأوضاع والمعبرة عن العالم الميتافيزيقي الملىء بالرموز المتباينة.

درس الطباعة الغائرة والبارزة في إيطاليا، ثم تخصص في التصميمات المتعلقة بالدعاية والنشر. وحصل على دبلوم التخصص من أوربينو بإيطاليا.

يعمل أستاذاً لفن الجرافيك (التصميمات المطبوعة)، وعميداً لكلية الفنون الجميلة بالأسكندرية. له مقتنيات بالكلية ومتحف الفنون الجميلة ومجموعات خاصة.

محمود الهندى

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

موت عباءة

رواية

خيرى شلبى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : **محمود الهندى**

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

مـوت عبـاءة

خيرى شلبى

إهــداء

إلى هانى عنان..

المصرى الذى - أبداً لا يغيب

«خيرى»

إما أن عرق الهيافة ممتد فى عائلتنا، فحدث ولا حرج، حتى لقد يعجب كل أهل البلدة من أن الخلافات التى تنشأ بين أ بناء عائلتنا تكون دائماً أبداً لأسباب، ربما بدت للآخرين تافهة غير موجبة للعراك بله أن يصل هذا العراك إلى ما يشبه القطيعة أحياناً. إلا أن العقلاء من أهل بلدتنا يعرفون أن عائلتنا جبلت على إقامة وزن كبير لبعض ما لا يهتم به الآخرون؛ وأن العراك قد ينشب بيننا فجأة لأسباب لا جسد لها يمكن الإمساك به. ولئن حاول أهل الخير التدخل أو إقامة الصلح فإنهم يتحيرون فى الوصول إلى عقاد نافع، فضلاً عن أن يعرفوا من المخطىء فى حق من، أو كيف بدأ الخلاف ولماذا تطور بهذه السرعة إلى هذه الصورة الغريبة حتى وصل إلى طريق شبه مسدود.

أنتم لاشك سمعتم هذه الحكاية الشهيرة التى صارت مثلاً، إذ قال ولد لأبيه: يا أبتى بماذا تنصحنى لكى أكون شخصية مهمة فى الحياة؟ فقال أبوه: تعال فى الهايفة واتصدر!!.. قائل هذه العبارة هو جدى لزم؛ غير أنى لست أذكر إن كان السابع أو الثامن فى جذع شجرة العائلة.

إخوتى وأنا مثلاً: ما إن توفى أبونا إلى رحمة الله وتم تشييع جنازته بشكل مهيب يليق بسمعة العائلة ووزنها الكبير فى البلدة؛ حتى تم كل شيء فى هدوء وسلاسة. إلا أن بذرة الخلاف ظلت كامنة فى عباءة؛ رغم أن ظروف البلاد فى الزمن الوغد كانت تدخر لنا من أسباب الفرقة ما لم يكن يخطر لنا على بال.. هى عباءة من الجوخ تركها أبى بين الكثير من أشيائه الخاصة.

فى البداية ظهر ما يشبه التسليم بأن أخى «عبد المطلب» هو الأحق بهذه العباءة لأسباب تبدو طبيعية. فهو الأخ الأكبر الذى كان بديلاً لأبى فى لحظات غيابه أو تعبه؛ بل لقد كان كبير العائلة فى الشهور الأخيرة منذ أن رقد أبى فى الفراش رقدة الوداع؛ كما أن أبى كثيراً ما ترك له العباءة كى يضعها على كتفيه فى بعض مشاويره ذات الطابع العائلى الصرف. فى الحق كانت العباءة تبدو متسقة عليه تماماً كأنها فصلت على مقاسه إذ أنه كان صورة طبق الأصل من أبى، مضافاً إليه الكثير من ملامح جدى الوقورة. مع ذلك كان من الصعب أن نسلم بأيلولتها إليه بشكل رسمى ونهائى؛ فلقد كانت فى نظرنا أثمن شيء تركه أبى، ليس لذاتها فحسب وإنما لما تمثله فى حياتنا..

كانت مشهورة فى بلدتنا ضمن أربع أو خمس عباءات ثمينة فى كل أنحاء البلدة. لها تاريخ عريق منذ جيء بها من الحجاز على يد جدى المباشر الذى قدر لأصغر إخوتى أن يراه فى نزعه الأخير. لها أيضاً ورقة تثبت ملكيتها عبارة عن فاتورة باسم جدى من المحل الذى باع قماشتها فى مكة المكرمة كما أن الخياط الذى حاكها بالكلفة الحريرية

المشتراة خصيصاً لها من بندر دسوق ما زال حياً يرزق وإن طعن فى السن، يتوكأ علٰى ذكريات عزيزة لا ينى يطلق بخورها فى دكانه الذى يشغله الآن ابنه، ومن بينها ذكريات تفصيله لهذه العباءة: كيف كانت قماشتها فرجة يلف صيتها البلد، وكيف كان علية القوم يجيئون للدكان لفحص القماشة والتشوف على مثلها وكيف دفع جدى ثمناً لحياكتها أربع كيلات من القمح ودفع البقشيش لإبنه هذا عنزة وذكرين من البط، وكيف لبسها جدى ولف بها البلد من أقصاها إلى أقصاها، وكيف كان بعض الأثرياء الذين أخنى عليهم الدهر يستلفونها لمشوار هنا أو حفل هناك..

سجلت ذاكرة بلدتنا قصة حياة عباءتنا فى قائمة كبار العائلات ذوى العباءات؛ فبفضلها صار جدى كبيراً لعائلته بحق وحقيق حيث اكتمل المركز بالمظهر اللائق. ذلك أن حفلات الأفراح أو مجالس الصلح أو الدعاية الإنتخابية أو مقابلة مأمور البندر تضع العباءات فى اعتبارها عند التعامل مع رؤساء العائلات؛ فذوى العباءات مقدمين على غيرهم فى الدخول وفى الجلوس وفى ترتيب الموائد والمحافل؛ وهم الذين يتوجه إليهم المتحدثون بالحديث؛ فإن هم تحدثوا أعطيت لهم الآذان باحترام شديد بغض النظر عن غثاثة أو قيمة ما يخرج من أفواههم. والاجتماع أو الحفل الذى تكثر فيه العباءات على أكتاف الرجال يصبح مصدر فخر كبير جداً؛ فينجعص العريس مثلاً فى الصباحية قائلاً ببساطة مقصودة وعدم اهتمام متقن: «كان الحفل أبهة ونظاكة! حضره أكثر من مائة عباءة»!.

من تراث النكت فى دارنا العريضة الواسعة بأفرادها الكثار نكتة ترد فى سياق حقيقة مؤكدة، أو لعلها حقيقة مؤكدة أخذت شكل النكتة بطبيعتها، تقول إن أبى حصل على مركز كبير العائلة بعد وفاة جدى - دون أعمامى - بحكم وجود العباءة تحت يديه عند الوفاة.

ليس غريباً فى الواقع - فى بلدتنا - أن يرث الإنسان مركزاً مرموقاً لمجرد أنه يملك العباءة؛ إذ لم يحدث قط فى بلدتنا أن رجلاً لديه عباءة ولم يكن كبير قوم بالضرورة. وكم فى البلدة من رجال فى أقوام لهم ثقلهم فى الحديث والرجولة والحكمة والمروءة والأدب ومع ذلك ترى كبارهم الرسميين مجرد جواليص من الطين المكبب داخل عباءات من الجوخ الأسود اللامع فى رصانة وجزالة.. هؤلاء لولا العباءات التى على أكتافهم ما التفتت إليهم عين ولا اهتزت من كلامهم ذبابة. أمثالهم باتوا لا يلتفتون إلى أى شىء فى شخوصهم طالما وجدت على أكتافهم عباءة، فلقد يرتديها الواحد منهم فوق أسمال بالية تتضوع بزخم العرق وروث البهائم. ما أسهل أن يسحب أحدهم العباءة من فوق الحبل المربوط فى ركن من الغرفة، أو من فوق قضيب السرير، فيرمى بها فوق كتفيه فيما يدس قدميه فى بلغة كالحة مبرطشة، ويهرول إلى مشوار طارىء.

قد لايكون فى داره بل فى حياته كلها ما هو أثمن من هذه العباءة بل ربما لا يكون لديه شىء سواها ولكن ذلك ليس له أية أهمية إذ أن العباءة تجب كل شىء؛ فهى الستر والغطاء، بل هى الدرع، هى المرتبة التى تحتفظ لصاحبها بمكانة فى عيون كل من يلتقيه؛ ذلك أن ملاقيه

سيكون بادىء ذى بدء على يقين بأن مالك مثل هذه العباءة ليس من المعقول أنه فقير عريان من الداخل؛ الأقرب للمنطق أن حامل العباءة وإن كان عارى السوأة رجل أميل إلى التواضع أو الزهد فى الأبهة أو على أسوأ الفروض رجل مهرجل غير معنى بملبسه نظراً لعنايته بجلائل الأمور. المثير للدهشة أن بعض الأكفاء من هؤلاء الذين لا يملكون فى حياتهم سوى العباءة قد خلقوا فى البلدة تقليداً غريباً أصبح يتبعه ويقلده حتى الأثرياء؛ أصبحوا يحلو لهم عدم الاعتناء بالملابس عن عمد، إذ يتعمد الواحد منهم أن يطرح العباءة على كتفيه فوق القميص العبك والسروال أبو دكة بشراريب؛ لسان حاله يقول بفصيح العبارة: واجبك عندى هو طرح العباة لإظهار مركزى أما مسألة التأنق فى الملبس هذه فليست من الصفات التى أميل إليها.

* * *

لكن عباءة فى البلدة صيت خاص وقصة حياة معلومة للصغير قبل الكبير وللقاصى قبل الدانى. فعباءة الحاج «بسيونى جرده» هى أول عباءة دخلت البلدة من الجوخ الإمبريالى المعتبر، جىء بها من مدينة استامبول رأساً، مع أب الحاج «بسيونى» الذى كان يعمل طباخاً فى معية أفندينا. كان الحاج «بسيونى جرده» حين يضطر للجلوس بها فوق مصطبة فإن مستقبليه ينظفون له المطرح بأطراف ثيابهم، وينفضونها له بكل رقة إذا علق بها غبار عابر. كانوا يحترمون فيها شخصية أفندينا وعاصمة الخلافة؛ كما أنها كانت فألاً سعيداً؛ فيوم دخولها البلدة جاء خبر هوجة «عرابى» زعيم الفلاحين الذى رفع رقابهم فى مواجهة الخديوى.

لايقل عن هذا الصيت صيت عباءة الشيخ «زيدان عصر» مأذون البلدة الوحيد. جاءته بمناسبة نجاح عمه صاحب عزية «عصر» فى انتخابات البرلمان عن حزب الوفد، وحصوله على الباشوية؛ ليكون أول

باشا فى بلدتنا. كان الشيخ «عصر» المأذون لا يخلعها حتى وهو يلاحظ أنفار العزيق فى أرضه الزراعية؛ ولا يتورع عن لبسها وهو جالس على النورج، أو حتى وهو ممسك بالمحراث، ولاينى يعدل طرفها حول عنقه وطرفها لا ينى يتهدل، ولا تشبع له من ذلك لذة؛ إذ هو يعشق أن يظل الجميع يشاركه الانشغال بعباءته؛ ليظل الجميع متذكراً على الدوام أتها من طرف عمه الباشا؛ يعنى أن له عم باشا لا يقطع صلة رحمة فإياك إياك أن تتطاول عليه أوتستهزىء به؛ يكاد ينطق بها فى هلفطة الأزهريين الذين أصبح ريقهم فى جريان مستمر من كثرة حفظ النصوص بصوت عال فى أروقة الأزهر؛ وللحروف جرس فى حنكه الواسع يتفق مع حجم رأسه الضخم ذى الوجه الأسود البشرة كأنه سليل «بلال الحبشي».

كل هذا كوم، وعباءة «عبد الحميد أفندى بقوش» كوم آخر. إنها أول عباءة تنطرح على ظهر أفندى مطربش من الأعيان يرتدى البذلة ورباط العنق، من فوقها المعطف القطيفة، ومن فوقه العباءة التى تعلن انتماءه إلى فئة كبار القوم. إنه لكبير قوم عن جدارة طبقية؛ عائلته لا تقل عن أربعمائة فرد معظمهم رجال وشبان فى مدارس البندر وجامعاته ووظائفه الحكومية؛ ومنهم فلاحون يفلحون فى حوالى ثلاثمائة فدان من أجود الأراضى ومنهم عدد لا بأس به من التجار العتاولة المشاهير يتاجرون فى كل شيء حسب موسمه، من القطن إلى المحاصيل الزراعية إلى الأخشاب إلى البطيخ ورسمال الحمام، يقرضون بالربا الفاحش. على رأسهم فى كل هذا كبيرهم «عبد الحميد أفندى بقوش»، الذى تعلم حتى شهادة الكفاءة فاستعلى على الوظيفة

الحكومية مفضلاً أن يدير أملاك أبيه. أبوه كان لواء فى الشرطة قبل أن يصبح عضواً فى البرلمان تتاح له فرصة امتلاك الأطيان الميرى بدون ثمن...

رغم أن لعائلته بيت فى القاهرة وآخر فى الاسكندرية فإن «عبد الحميد أفندى بقوش» لا يطيق البعد عن بلدته أكثر من ليلتين أو ثلاثة فى الأسبوع يقضيها فى سفرية لبيع أو شراء فى أماكن متاخمة لسكنى زوجاته؛ فله فى مصر الجديدة زوجاً، وفى محرم بك بالاسكندرية أخرى، وفى البلدة اثنتين إحداهما بنت عمه تزوجها للإحتفاظ بميراثه من الأرض والأخرى بنت خاله تزوجها للإحتفاظ بمنصب خاله كلواء فى الجيش.

ولقد نافس «عبد الحميد أفندى بقوش» على عضوية البرلمان إثر خلو الدائرة بموت أبيه؛ فلم يفلح؛ لأنه ليس موهوباً فى الخطابة كأبيه، وليس ثعلباً فى جوفه ثعبان كأبيه؛ إنما هو كالدهل، فيه طيبة أخواله؛ مكلبظ الوجه مثلهم يتدفق بصفائح الدم القانى وإن كان بلا ملامح محددة كأنه بطيخة حمراء منزوعة القشرة الخضراء، ما تزال بقايا من اخضرار القشرة حول أذنيه وفى فوديه؛ ثقيل اللسان سريع اللهجة، مع ذلك فثلاثة أرباع كلامه غير مفهوم على الإطلاق؛ وتلك فى الواقع هى موهبته التى نجح بها فى حقل التجارة إذ أن مساوميه يجدون طريق التفاهم مسدوداً فلا يفهمون إلا ما يركز هو عليه بكلمات محددة واضحة لا يحيد عنها مطلقاً؛ مما يحدو بمساومه إلى إنهاء البيعة بأى شكل بدلاً من تضييع الوقت فيما هو غير مفهوم..

وفي ظل ثورة يوليو نافس على عضوية البرلمان مرة أخرى مضحياً بأموال كثيرة رشها على عامة الفقراء والمساكين وأبناء السبيل كما ساعد بعض المحتاجين من الشطار في مشاريع استثمارية؛ لكنه مع ذلك خسر الدائرة وإن ضمن بلدتنا كلها، مما يجعل حبل الأمل في النجاح موصولاً بدورات قادمة. إلا أنه بعد أن تكرش بصورة مذهلة وتضخم جسده قَلَّتْ حركته رغم أنه استبدل الكارتة التي يجرها الخيل بالسيارة الفورد بسائق خصوصي مستورد من بندر دسوق؛ فضؤلت بذلك طموحاته السياسية، بات قانعاً بالمنافسة على عمودية البلدة، ولكن لأنه غير واثق من مجيئها إليه كان يشمئنط ويشمخ بأنفه حين تجيء سيرتها ولسان حاله يكذب قائلاً: إن الذي نافس على عضوية البرلمان لا يقنع بالعمودية بله أن يسعى إليها أما إن جاءته وحدها طائعة مختارة فهذا شيء آخر..

هو في الأصل لم يكن من لابسي العباءات وإن كان كبير قوم. كان - بسلامته - يريد أن يطلع في مطلوع جديد يصبح تقليداً لكبار القوم المحدثين العصريين، فكبير القوم إن كان أفندياً ففي أفنديته الكفاية، الطربوش واللقب أعلى مرتبة من العباءة بكثير لأنهما مشفوعان بمعرفة القراءة والكتابة ومخالطة ناس أكبر ومراتب أعلى؛ لكنه - وبوزه في التراب - اضطر إلى لبس العباءة صاغراً حينما فكر في ترشيح نفسه لعضوية البرلمان؛ عاد يتمسح في العباءة، فاللقب والطربوش وإن كان فيهما الرفعة والأبهة فإن العباءة فوقهما ربط بالأصول وبطاقة هوية. هكذا يبرطم في غير مناسبة كأنما قد سأله لماذا سائل العباءة فوق البذلة والطربوش أليس من المستنكر أن تجمع بين مظهرين نقيضين؟ وكأنما

هو يدلى بالجواب فى صيغة تصريح صحفى ومكاشفة: ما اللقب وما الطربوش يا هذا؟ طظ! أنا فلاح أعتز بأصلى كـ «عرابى» و«عبد الناصر»ولكن ما دمت حزت على لقب أفندى يستحق البذلة والطربوش فإن أصلى يعلو فوق البذلة والطربوش. ربما كان يريد أن يصبغ ذلك فى خطبة جماهيرية فى ناخبيه لكن لأنه ليس من أهل الخطابة فإنه يقولها والسلام؛ أنجح صيغة توصل إليها قوله فى المصلين وهم خارجين من صلاة الجمعة فى مسجد العصاروة، فى لباقة وابتسامة مهذبة إن استمساكه بالعباءة فوق البذلة والطربوش هو رمز يشير إلى صدق استمساكه بموطنه بمسقط رأسه بأهله بعشيرته أى أنه حين يتجح فى الإنتخاب سوف يبقى بينهم فى البلدة يستطيعون مقابلته فى أى وقت يحتاجون فيه لأى خدمة فليثق ناخبوه من هذه الناحية. أما وقد خسر المعركة فإنه ظل يطلب ثقة الناخبين لأسباب تجارية، فبقيت العباءة جزءاً لا يتجزأ من شكله لاتغادر كتفيه صيفاً أو شتاء بل لا أحد يتصوره بغيرها، حتى الذين يزورونه فى داره عرضاً ويرونه بغيرها يبدو فى أنظارهم كجمل قصت فروته فانسخط شكله وضؤل حجمه؛ ولذلك فإنه سرعان ما يخطفها ليطرحها على كتفيه أياً كانت شخصية الزائر، كالمرأة تسرع بتغطية شعرها إذا دهمها رجل على حين غرة.

أين كل هذه العباءات من عباءة «العبد شتا»؟ هى أول عباءة فى بلدتنا تغترب عن أهلها الأصلاء، تتعطف بسماحة فتتنزل عن أكتاف علِيَة القوم لتحتوى ظهر «العبد شتا»، الذى لم - ولن يكون كبير قوم على الإطلاق؛ لسبب وحيد هو أنه ليس له قوم من الأساس. مقطوع هو من شجرة كما يقولون عنه فى بلدتنا؛ إذ لا تعرف له أباً ولا أماً بله أن

يكون له خال أو عم أو صهر؛ إذ أنه تدلك لم يتزوج منذ أن ماتت زوجه الأولى التي لم تكن نعرف بلدتها الأصلية ولم تكن أنجبت منه ذرية. ولماذا يتزوج وهو رجل فلاتي كذئب لا يشيخ ولايعتريه الوهن. إلا أن حرمانه من عزوة العائلة قابله ثراء فاحش في نباهة الذكر إذ هو مشهور في العب كله شهرة الشمس والقمر. تاريخه الطريف على كل لسان، كبطل من أبطال الأساطير يحيا كلما ورد اسمه على الذاكرة وما أكثر ما يرد..

هبط على بلدتنا ذات يوم بعيد جداً ضمن ترحيلة من الأنفار الفواعلية جاء بهم المقاول الذي تعاقد مع الحكومة على ردم المستنقعات في نواحينا. كانت بلدتنا تطل على أكبر مستنقع؛ كان في الأصل بحراً زاخراً اسمه بحر السبيل، يختط قوسه الدائرى بطون سلسلة من القرى المتجاورة والمتناثرة؛ إلا أن طمي الفيضانات المتواترة زحف عليه بكثير من الطمي والزلط والرمال سدته في كثير من المناطق أقامت جزراً كبيرة تصلبت أرضها فسرعان ما نبت فوقها قوم يستزرعونها يلتحمون بملكيتها ثم تولت شمس التحاريق تجفيف المياه في بعض مناطقه الضحلة فحولتها إلي ما يشبه الطبيخ البايت تتجمد فوقه رقائق الدهن والدسم في شكل قميء كئيب ضارب إلى الإخضرار العطن. آب البحر إلى برك آسنة تتخللها غويبات من البوص والحلفاء والياسنت وذقن الباشا وفساء الكلاب. يخوض فيها الرجال والنساء والصبيان لاغتنام قوافل من الأسماك المعتقة من بلطي وقراميط لاينجح الصياد في الإمساك بواحدة منها إلا إن برك فوقها وحوطها بذراعيه في حضنه بقوة. وكانت طبقة من الملح السميك تزحف على

الشطآن لتفسد الأرض الزراعية، وجراثيم البلهارسيا تأكل أكباد الناس كما أن جيوش البعوض تغزو الدور لا يفلح فى صدها جدر أو نيران أو غازات..

فلما آذنت شمس البحر بغياب صحت البلدة ذات يوم على مهرجان خطير: جاءت العربات الكاميون محملة بالقضبان وبطوائف من رجال من كل الألوان والأشكال ما بين أفندية مطربشين وعمال يلبسون العفاريت الزرقاء وأنفار يتسربلون بأسمال بالية؛ راحوا يثبتون هذه القضبان فى الأرض المتاخمة لشطآن البحر يصلونها ببعضا. فداخلتنا الآمال العراض توهمنا أن البلدة أخيراً دخلت عصر السكك الحديدية وغداً يتخذها القطار محطة نركب منها وننزل فيها، آن الأوان لأن تصبح بلدتنا مدينة. فما أن اكتملت القضبان حتى فوجئنا بعربات صغيرة ذات عجل حديدى كعجل القطارات تجرى فوق هذه القضبان، كل عربة تشبه عربة القمامة لها مقبضان يتعلق بهما نفر ليدفع العربة فتجرى فوق القضبان بسرعة وقد امتلأت بالرديم؛ فإذا ما وصلت إلى نهاية القضبان رفعها النفر ليقلبها فى الأرض تاركة حمولتها؛ ليتولى أنفار آخرون إزاحتها بالفئوس والكريكات إلى قلب البركة؛ ثم تمضى العربة مع استدارة القضبان على خط عائد إلى المكان الذى ينزحون منه أكوام الردم المأخوذ من بعض طين الترية أو من مخلفات تطهير المصارف.

«العبد شتا» كان من بينهم نفراً ليس ككل الأنفار؛ إنما يتميز عنهم بكثير من المميزات وإن كان يشبههم تماماً فى الملبس والمأكل والمنام

فى عشش من البوص أقاموها على تخوم البلدة. من ميزاته أنه بندرى اللهجة بخلاف اللهجة الصعيدية المتفشية فى عموم الأنفار، لسانه مرن، يعرف الكثير من العبارات التى يستخدمها محررو الصحف؛ ومثل علية القوم يتحدث فى السياسة على قده ولكن بما يوحى أنه يعرف الكثير من أمورها.

الأكثر من هذا أنه يفك الخط ويوقع بإمضائه عند استلام أجرته من المقاول وهو الوحيد الذى يجرؤ على مراجعته فى الحساب. بات من أشهر الأنفار فى البلدة؛ سرعان ما أقام العلاقات الطيبة بالناس؛ إذ أن وجهه مكشوف فى غير سماجة ولا ثقالة، يحود على أى بيت فيستلف أرغفة الخبز وقطع الجبن القريش وكوب الشاى؛ قد يجلس أو يشرب بين أهل الدار ملبياً الدعوة فى الحال..

ما كاد العمل فى ردم المستنقعات ينتهى حتى صار كأنه واحد من أهله البلدة يعرفه الصغير والكبير معرفة حميمة. يناديه الجميع باسمه مجرداً، يجدون لذة فى نطقه: العبد شتا. كان واعياً مفتحاً واسع الأفق بشكل فطرى مدهش؛ حوط على بركة كاملة بعد ردمها تقترب مساحتها من ثلاثة أفدنة، سعى بطرق غريبة لدى جهات يعرفها دون أهل القرية جميعاً، حتى حصل على موافقة كتابية من الحكومة على أن يقوم باستصلاح هذه القطعة من الأرض وزراعتها لحسابه مدة معينة من الزمن يحق للحكومة بعدها أن تطلب منه ما تشاء من ضرائب. لم يعترضه أحد، بل وجد من التشجيع ما لم يكن يتوقعه، لقى من زوده بمحراث، ومن ساعده على حفر قناة، ومن قدم له النصح

والمشورة والتقاوى دون انتظار لمقابل. زرعها بأشجار الفواكة من كل الأنواع؛ راحت البلدة تراقب الأرض في شغف، تفرح بمنظر الشجيرات الخضراء وهي تشب عن الطوق على مهل؛ وهو على مهل يرويها.. يقلمها.. ينظفها.. يسهر .. ينام بجوارها حتى وقفت على حيلها وسط دهشة البلدة الممزوجة بفرحة غامرة. كانت هذه أول حديقة كاملة بمعنى الكلمة تنمو بإرادة الجميع ومباركتهم في أهم وأجمل مدخل من مداخل البلدة، أكسبت البلدة منظراً جميلاً بالفعل. هو الآخر كان ذكياً؛ زرع بين الأشجار كل أنواع الخضروات؛ يبيع منها ما يستطيع بيعه يوم السوق ليشترى اللحم والسمك؛ ونذر ألا يبيع لأهل البلدة شيئاً، كله بالمجان؛ فأصبح كل أهل البلدة حراساً لزرعه. أقام لنفسه عشة صغيرة في ركن منها، سرعان ما أصبحت داراً كبيرة محاطة بتكعيبة العنب. بعد ذلك تزوج من بلدة بعيدة من امرأة قيل إنها كانت جميلة جداً لأنه خبأها في الدار لا ترى الشارع ولا يراها الشارع؛ وكانت حاملاً أثناء سريان وباء الكوليرا في البلاد فماتت هي والجنين؛ فأخلص لذكراها فلم يتزوج بعدها...

ولماذا يتزوج والليل ملكه بنساء وافدات عليه من كل ناحية خاصة أولئك اللائى تتاجرن فى الخضراوات والفاكهة من نسوان البلاد المجاورة. قيل إنه قد خاوى امرأة من الجن تحت الأرض نفحته بركاتها.. ظلت عليه.. أبعدت عنه شرور مصلحة الضرائب ومصلحة الأملاك وقطاع الطريق..

ذات يوم طلع الحجاز وعاد رجلاً وقوراً مهيباً، يحمل قطعة من قماش الجوخ ينوى تفصيلها عباءة ـ كانت قصة تفصيلها من أطرف ما

تبقى فى ذاكرة القرية حياً كأنه حدث منذ ساعات قليلة. ذلك أن خياط البلدة لم يهضم فكرة أن «العبد شتا» - الذى يمشى حافياً لأنه لا حذاء يناسب قدميه المفرطحتين - هو الآخر يرتدى عباءة ليصبح من علية القوم! هذا الغرباوى الذى لا أحد يعرف له أصلاً كيف تتسلل أكتافه الخشنة الجرباء تحت عباءة تساويها بأكتاف ورثت العلو من الأبهة والنسب. صحيح قد غدا غنياً وصاحب أكبر حديقة فى العب كله، كما أن خيره سابغ على الكبير والصغير فجلاً وجرجيراً وبلحاً وخوخاً ورماناً؛ إلا أنه مع ذلك يبقى هو «العبد شتا»؛ ولا يمكن لأحد أن ينسى أنه ذلك النفر الذى كان يشحذ الرغيف وقطعة الجبن ويتلقى لسع الكرباج فى ردم المستنقعات وللعبد شتا - ككل العبيد - أن يغتنى مهما يغتنى فالأموال لا ضمير لها ولا نظر؛ لكن أن يرتدى هو الآخر عباءة فاخرة فهذا ما لا يتسق أبداً فى أذهان الفئة المسيطرة على شئون الحياة فى بلدتنا وهى كبيرة بأذيالها. وإذا كانت الظروف الخرقاء قد مكنته من شراء القماشة فليس يليق بأكبر خياط فى البلد أن يشارك فى صنع هذه الظاهرة الخارقة بله أن يبدع فى تفصيلها بنفس العناية التى يحيك بها عباءة العمدة و أى رجل من علية القوم. إنه لا ينبغى أن يلوث تاريخه كخياط يجىء له الزبائن بالركائب من كل البلدان المجاورة مفتونين بصنعه؛ فصيته مبنى فى الأساس على أنه متخصص فى التفصيل لنخبة متميزة من رجالات العائلات عمد ومشايخ وبكوات وباشوات.

هكذا وقر فى ذهن المعلم «فرحات» الخياط أنه لو فصل هذه العباءة للعبد شتا فإن سمعته ستجىء فى لأرض، سيصبح أمثولة فى الهزء

والسخرية، أين يدارى وجهه حينما يعلم زبائنه الأصلاء أن هذه العباءة التى أخنى عليها الدهر فأهينت على كتفى رجل فلاتى - مهما حج - كالعبد شتا؛ أقل ما فيها أنهم لن يحترموه بعدها، وحينما يرونها متسقة عليه بفضل الدقة فى التفصيل والحياكة سيشعرون أنه ليس أسطى بحق وحقيق إنما هو أجرى يبيع فنه وصنعته لكل من يدفع الثمن فيمرمغ سمعة الصنعة فى الطين، سيقولون: إخص عليك أسطى دنىء لا تمييز عنده!..

بهذه المقلقات والهواجس والمنغصات كان «فرحات» الخياط يتهامس مع خلصائه فى سهرات الدكان تحت وشيش الكلوب الذى يفرش ثوبه الأبيض الشاحب على الملاء الأسود الممتد أمام الدكان على امتداد الشارع العمومى حيث تنكمش الدور وتختفى المصاطب والنخلات والمحاريث والنوارج الملقاة أمام الدور كالفخاخ الشريرة فيما تتكوم قماشة العباءة تحت مؤخرته وهو متربع أمام طبلية التفصيل المستطيلة كالضرابية المعدة لغسل الموتى، وخلف ظهره دولاب كبير ترتص فيه الملابس المحاكة فى انتظار مجىء أصحابها بعد تدبير أجورها؛ ومن حواليه رصات أثواب الأقمشة المعدة للتفصيل، وبجوار المصطبة الخاصة به تقوم ثلاث ماكينات ماركة سينجر يعتلى كل واحدة منها صنايعى خلع جلبابه وبقى بالفانلة أم كم طويل مع السروال أبو دكة؛ وعلى مقربة من العتبة يتربع أكبر صنايعى فوق حصير ملون وقد إندمج فى تركيب الأقطنة والكلف الحريرية بالإبرة الدقيقة بيد ماهرة مدربة سريعة وعين نافذة تلتقط الضلع المطلوب لفتلة القطان، فيما هو يتابع الحديث ضاحكاً من أعماقه؛ وبجواره يتربع صبى صغير

يقوم بتركيب الزراير؛ وفى وسط الكان يتربع صبى آخر أمام الوابور وعدة الشاى.. وعلى المصاطب الملاصقة للجدران الثلاثة يتربع عدد كبير من رجال الناحية، يمطون رقابهم ضاغطين بأسنان شفاههم السفلى من فرط الاغتباط واعتقالاً للضحك، ومن حين لحين ينهض أحدهم متسللاً فيخرج بغتة يتطلع فى الظلام حول الدكان متوقعاً وجود من يتصنت..

وإذ لمس «فرحات» أن الجميع يضمرون تأييداً لوجهة نظره حتى وهم يراجعونه فى موقفه بقولهم إن من واجبه التفصيل لأى إنسان طالما سيعطيه أجره؛ حتى وهم يلومونه بقولهم إن هذا ظلم واستهزاء بخلق الله لا يرضيه سبحانه. لقد لمس بحاسة خفية عنده أنهم ليسوا يستسيغون تطاول «العبد شتا» على لبس العباءة؛ قرر أن يمتنع عن تفصيلها؛ كل ما هنالك أنه مكسوف من الرجل؛ فالرجل ـ ربك والحق ـ طيب ولطيف وكريم، وودود، لن يتأخر عن دفع أى مبلغ؛ بل إنه يرسل كل يوم هداياه من الخضراوات الطازجة والفواكة النادرة فى غير موسمها؛ فماذا يقول للرجل؟ يا للكسوف؟ دبرونى يا ناس أنا فى عرضكم. والناس يواصلون الضحك العابث قائلين: فصلها وتوكل، أغمض عينيك وفصلها، ربما فيها الشفاء؛ وهو لا ينى يعلق فى ألم يحبس انطلاق صوته:

ـ «كيف يا رب أمقق عينى وأضع فنى وصنعتى على كتفى رجل سيمرغه فى الطين؟! إنه لن يفهم ولن يقدر صنعتى ولن يظهر بها فى وسط ناس يقولون له لدى رؤيتها عليه: من الذى فصل لك هذه العباءة يا فلان؟! إفهمونى يا جماعة! المسألة والله ليست مسألة فلوس»!!..

على هذا راح «فرحات» الخياط يماطل فى التفصيل؛ وكل بضعة أيام يتلقى «العبذ شتا» بترحاب مبالغ فيه، وبوجه بشوش مجامل وفى خجل عظيم يشكو له من أن لديه ثلاثة عرسان سيدخلون هذه الأيام، وأنه لا يحب أن «يكلفت» شغله خاصة تفصيل العباءة يجب أن يروق له. كل ذلك و«العبد شتا» لا يحتج ولا يعترض ولا يلح بل يمعن فى الصمت والاسترخاء؛ فى نفس الوقت لا تتوقف عادته فى إرسال الهدايا..

ولأن شيئاً لا يمكن أن يحتجب فى القرية، ولابد لما أخفاه جوف الليل أن يكشفه ضوء الصباح العاجل؛ ولأن الجدران القصيرة القامة والنوافذ غير المحكمة والفضاءات الواسعة تحت الشمس الساطعة لاتقوى على حجب الأسرار؛ ولأن أجواف الناس كالفضاءات الواسعة نيست تصلح بيئة لاحتواء الأسرار؛ لهذا كله فإن «العبد شتا» قد وصلته حقيقة الأمر بكل وضوح، وتأكد من أن «فرحات» الخياط يستصغر شأنه؛ فأقسم ليفصلها فى بندر دسوق نفسه عند من لا يصلح «فرحات» أن يكون خادماً لهم. هذه هى الكلمة الوحيدة التى نطق بها ««العبد شتا» وهو يتأبط قماشته خارجاً بها من دكان الخياط..

ما أذهل الخياط أن «العبد شتا» استرد قماشته بحيلة لطيفة ناعمة؛ إذ تخير اللحظة التى يتجمع فيها أقطاب السهرة عند الخياط؛ حيث فوجئوا به يدخل عليهم وبصحبته رجل شديد الاحترام من قبلى البلد من عائلة «الجرانة» مشهور بطيبة القلب وصفاء النفس. لحظتها كانوا يتكلمون فى موضوعهم الأثير ولهذا فقد حط عليهم صمت متوتر جهم الملامح ينذر بعكننة مسودة الوجه، حتى لقد اضطربت أصواتهم وهم يردون عليه السلام؛ ثم جحظت العيون لبرهة ثم طارت النظرات المتوجسة الحائرة.

قال «العبد شتا»:

- «عدم المؤاخذة يا أسطى «فرحات»! الحاج «حمودة» يحب يتفرج على القماش! أصله لم يصدقنى حينما قلت له إنها من الإمبريال الأصلى»!..

فما كان من الخياط إلا أن رفع آليته ونزعها من تحته ثم ضربها بكفه ضربتين ينفضها من التراب قبل أن يسلمها لـ «العبد شتا»، الذى تأبطها فى الحال ساحباً الحاج «حمودة الجرن» ملقياً عبارته تلك التى رنت فى أرض الدكان رنيناً كانفجار طلقة الرصاص. لم ينطق أحد منهم. ظل الصمت مخيماً على قعدتهم أياماً طويلة لا يهنأ لهم ضحك لأن العبارة ماتزال ترن فى عتبة الدكان قوية متحدية مفاجئة. لم ينطقوا إلا يوم جاءت العباءة من بندر دسوق منطرحة على كتفى «العبد شتا»، الذى امتطى حماراً استأجره من محطة (شباس الشهداء) يجرى خلفه مكارى؛ وكان لأول مرة فى حياته ينتعل مركوباً بنى اللون مفصلاً على مقاسه عمولة؛ وتحت العباءة جلباب من الصوف، من تحته وجه الصديرى الحرير الشاهى اللامع بأزراره الصدفية وكتينة الساعة تتدلى من إحدى عرزاويه العلوية، وفوق رأسه - وياللعجب - طربوش غامق اللون محبوك الزر على الجانب الأيسر. وكان يطوح ساقيه فوق ظهر الحمار فى عظمة كأنه مخلوق هكذا؛ لدرجة أن القوم لم يعرفوه لأول وهلة؛ إلا أن صوته الخشن المميز بعوجته الغرباوية كان يقرع آذانهم بالسلام عليكم فيديرون رءوسهم فى حيرة متشككة يصيحون على أثرها فى لهجة مغايرة للهجة الرد الوقورة التى سبق أن

ردوا بها سلامه باعتباره ضيفاً غريباً من علية القوم: «الله العبد شتا، ياأولاد! العبد بك شتا»..

تكأكأ الناس حوله من كل ناحية صنعوا موكباً يزفه بالزئيط والضحك طوال شارع داير الناحية. وقد سبق صوت الزئيط الصاخب موكبه فزلزل هدوء القعدة الصاخبة في دكان المعلم «فرحات» الخياط فأزاح المقص وطوى المازورة حول عنقه وهب واقفاً فقفز إلى الباب ومن ورائه كل الموجودين في الدكان في هذا الوقت الجميل المنحصر بين صلاة العصر وصلاة المغرب وهو أجل الأوقات في القرية أكثرها هدوءاً وسماحة وأريحية. وقفوا على مصطبة الدكان الخارجية في شغف هائل يرقبون المشهد الحافل: حتى إذا ما صار «العبد بك شتا» ملء أنظارهم لم يتمالكوا أنفسهم فإذا هم يرفعون أيديهم ويصفقون. فلما حاذاهم «العبد شتا» ترجل بكل وقار احتراماً للواقفين ثم ظل ممسكاً بلجام الحمار. وحينما وقف استوت العباءة منسدلة على كتفيه سابقة سخية معطاءة؛ ثم دار حول نفسه دورتين، ثم رفع يده بالتحية إلى جوار زر الطربوش؛ ثم قفز معتلياً ظهر الحمار قائلاً بلهجة ذات معنى:

«شي..ى..ى.. يا حمار ياللي مابتفهمش»!

فكانت هذه هي القنبلة الثانية التي فجرها على عتبة الدكان؛ مما خلف ذهولاً صبغ وجوه الجميع بكثير من الخجل؛ خاصة أن العباءة كانت متسقة على جسد «العبد شتا» كأبهى وأروع ما يكون بل لعلها كانت أجمل عباءة في البلدة على الإطلاق. كل من وقع بصره على «العبد شتا» لحظتها لم يستطع كتمان إعجابه بها واتساقها: إش ش!

مبروك ياعم. طلعت كلمة يا عم لأول مرة كأنها لصيقة بالعبد شتا من قديم الأزل مع أن أحداً لم يكن يقولها له مطلقاً..

تلك الحادثة أحدثت فى البلدة زلزالاً زعزع الرواسخ أقض مضجع الأسطى «فرحات» الخياط.. أرق ليله.. أورثه مرض القهر واصفرار الوجه والتعنية المستمرة .. أصبح يكثر من دخول دورة المياه ليحزق طويلاً ويخرج منها أصفر الوجهه متألماً؛ أصبح يغمغم بكلمات مضغصة يتضح منها بعض عبارة من قبيل:

- «سبحان الله! لبس البوصة تبقى عروسه سترته العباءة فعلاً ولولاها لظل جربوعاً مهما ارتدى أغلى الثياب! الخياط لو عرف حقيقة أصله لطرده من دكانه!! لسوف يرخص قدر العباءات فى البلد! سينفر الناس بعد ذلك من لبس العباءات»!..

لكن الذى أمض الأسطى «فرحات» حقاً وأصابه بالمرض هو أن الأمور انقلبت رأساً على عقب فجاءت على عكس ما توقعه تماماً.

فالمثير للدهشة والغيظ أن الأثرياء الذين اشترى الأسطى «فرحات» خاطرهم واحترم مركزهم، والذين طالما غمزوا ولمزوا وأوعزوا له بالترفع على تفصيل هذه العباءة كانوا أول من استحسنوا تفصيل هذه العباءة وانبهروا بشكلها باتساقها على قوام «العبد شتا». بدأ بعضهم يراجع مقاييسه يكتشف أن عباءته لم تكن متسقة عليه هكذا بالشكل الذى حدث مع «العبد شتا»؛ سرعان ما داخلهم الظن بأن السبب فى الإتساق من عدمه هو الخياط نفسه قبل نوعية القماشة وبصرف النظر عن جسد اللابس إن كان قصيراً أو طويلاً نحيلاً أو سميناً بكرش. ثمة

ظاهرة جعلت تنتشر فى البلدة بين الأثرياء، ظاهرة السفر بقماشاتهم إلى بندر دسوق لتفصيل العباءات هناك، بل صاروا كلهم يتوددون إلى «العبد شتا» يجالسونه باحترام كبير ليدلهم على الخياط الذى فصل له، وعلى حسابهم ينقلونه ليتولى التوصية بنفسه..

إلا أن «العبد شتا» منذ أن تسلم العباءة لم يخلعها فأصبح أول من حطم هيبة العباءة فى البلد؛ إذ يبرش بها فوق الأرض فى أى مكان ويتغطى بها عند النوم؛ وعند اللزوم يغطى بها أقفاص العنب الفرط. ورغم أن أحداً لم يكن يعرف إلى من ستئول ملكية هذه الحديقة فإن هذا الأمر لم يلفت نظر أحد، إنما لفت نظرهم ميراث العباءة. لم يطمع أحد فى شراء حديقته إنما طمعوا جميعاً فى إستنقاذ هذه العباءة من الهوان الذى أغرقت فيه. وكلما أمعن القوم فى إظهار شفقتهم على العباءة أمعن هو فى إساءة استخدامها كأنه ينتقم فى شخصها من عدو مجهول؛ وهى تأبى إلا أن تزداد جدة ولمعاناً ولا تتكرمش أو تترهل أو تصاب كلفتها الحريرية بالجرب؛ فظلت تصفى على «العبد شتا» احتراماً شديداً يجبر الناس على مخاطبته بلقب يا عم أو ياحاج؛ وأصبح على حسها يؤم المجالس الكبيرة التى تقام للصلح أو لتدبير شئون البلد، بل إن مرشح الدائرة الإنتخابية لا ينسى أن يمر عليه ليقف فى قلب الحديقة ملقياً خطبة عصماء يمتدح فيها كرم أصل «العبد شتا»، وسط جمع غفير من الناخبين..

المدهش مع ذلك أن أحداً من أهل البلدة لم يعترف للعبد شتا بأنه شخصية تحمل فى داخلها مقومات الاحترام وملء الهدوم؛ لم ينظروا

إلى العباءة التى تضفى قيمتها على لابسها فترفع من شأنه حتى وهى مهانة تحت ظله الوطىء وأصله الدنىء كما ثبتوه فى أذهانهم؛ الأمر الذى احتفظ للعباءة فى القلوب بمركزها الرفيع؛ فباتت أملاً يداعب خيال كل طالع فى الرجولة متطلع إلى تبوء مركز الصدارة فى عائلته.

* * *

حق لأخى «عبد المطلب حشلة» أن يقبض على عباءة أبينا بيديه وأسنانه. وكنا جميعاً نعرف هذا ونوقن من أنه لن يتنازل عنها حتى لو اشترينا له عشر عباءات جديدة؛ ولسوف يكون رده المفحم المتوقع:

- «من يريد أن يشترى عباءة جديدة فليشترها لنفسه! أما أنا فلن أفرط فى هذه العباءة القديمة المسكينة على قدى»!!..

سيقول طبعاً إلى ذلك إنها من ريحة والده الغالى؛ وإنها ذكرى طيبة يجب الحرص عليها. وهذه بالطبع ذريعة مقبولة تستحق احترامنا لكننا نعرف أنه يعرف أن قيمة العباءة تزداد حسب قدمها شأن كل الآثار الثمينة، شأن كل القيم الثمينة تحتفظ بأصالتها حية إلى ما لا نهاية؛ سيما وأن أخى «عبد المطلب» قد تعلم من أبى فن التعامل معها والحرص عليها؛ فلابد أن يذيقها طعم مياه شهر طوبة كل عام؛ إذ يضعها ليلة كاملة فى طشت ملىء بالمياه الباردة، ويا حبذا لو تركها فى العراء ليسقط فوقها ندى شهر طوبة، بغير صابون أو أى مادة كاوية؛ فمياه شهر طوبة - كما ورث أبى عن معتقد أجداده - تصلب

حيل القماشة الجوخ بالذات، وتجدد صباها، رواءها، ورونقها، لكأنها كالزرع نبات حى يسترشف قطرات الندى ليتغذى عليها.

تلك أول وصية يتلقاها وارث العباءة. الوصية الثانية هى أن لا يضعها تحت المكواة أبداً، لأنها إن كانت أصيلة الفتلة والنسيج فإنها تظل مستوية شامخة سخية منبسطة الأديم فلا تتكرمش متكورة على نفسها كالجبان الرعديد كأى نسيج من فتلة خسيسة؛ أصالة الفتلة ـ كما قال أبى ـ تسبغ على النسيج كرمه فلماذا تكويه بالنار؟ إن كويه بالنار بمقام لبس العباءة وغسلها مائة مرة على الأقل مما يقصف عمرها .. يقطع حيلها بسرعة..

ذلك بالضبط ما كان أخى «عبد المطلب حشلة» يحرص على إجرائه نيابة عن أبينا فى سنيه الأخيرة؛ فكان يبدو على أبى كأنه قد سلم بإيالة العباءة لأخى «عبد المطلب» فيما يشبه التواطؤ؛ مما كان يبعث فينا بعض الغيظ منهما معاً. أما الآن؛ فلأنه لم يكتب ذلك فى وصيته بل إنه لم يكتب وصية من الأساس؛ ومن ثم فلابد؛ أن نناقش أمر هذه العباءة بصراحة ووضوح؛ يجب أن يحسم هذا الأمر تماماً فى قعدة عائلية تتصافى فيها النفوس؟!. نعم؛ فبقدرة قادر، ولأننا عائلة «حشلة» بالذات وليست أى عائلة أخرى؛ باتت هذه العباءة كأنها أثمن شيء تركه أبى على كثرة ما ترك لنا من ميراث..

عملية تقسيم الميراث بيننا تأجلت شهوراً طويلة والسبب هو هذه العباءة التفكير فى تقسيم الميراث كان يبدو مجرد حقيقة مفروغ منها غير أن التنفيذ لم يكن قد تم وإن عرف كل واحد ـ بالحدس أو بالتخمين

ما نصيبه بالضبط؛ إلا أنه كان يبدو وكأن ثمة تواطؤ خفى يشترك فيه الكل على تأجيل التقسيم كأنما هو خطر نتوجس من مواجهته. أخى «عبد المطلب» هو الآخر تجنب لبس العباءة خلال هذه المدة بل أخفاها فى صندوق ملابسه؛ الأمر الذى يجعل أخى «إبراهيم حشلة» - الذى يلى أخى «عبد المطلب» فى السن لكنه أحكم منه وأعقل - ينبر من تحت لتحت بكلمات مدببة فيما هو ممسك بالجوزة يسحب منها الأنفاس فى بطء وسأم؛ كأن يقول فجأة دون مناسبة:

- «متى نرشح عباءتنا فى الإنتخابات»؟!

وتعود أخى «عبد المطلب أن يبلعها؛ وتعودنا أن نجز على أسناننا ضاحكين..

على أن أخى «عبد المطلب» قد سعى لحسم الأمر حسماً قاطعاً؛ إذ انتهز فرصة اجتماعنا على طبلية العشاء فى ليلة موسم عاشوراء حيث امتدت أناجر الكسكسى وسلطانيات المرق الدسم وثلاث بطات كبيرات محمرات بكامل هيأتها؛ وتأكيداً لموقعه ككبير للعائلة بعد أبينا شمر أخى «عبد المطلب» عن ذراعيه؛ وبأصابعه الطويلة راح يفسخ البطات إلى قطع صغيرة يضع كل قطعة أمام كل واحد منا؛ وحين جاء الدور على أخى «إبراهيم» علق أخى «عبد المطلب» يده فى الهواء ممسكة بالمناب فيما ينظر لأخى «إبراهيم» نظرة ذات معنى قائلاً:

- تختار المناب أم العباءة»؟!

فهتف أخى «إبراهيم» بحماسة:

- المناب طبعاً! تظنني عبيطاً؟! العباءة مفقود منها الأمل فهل أستغنى بلقمتى فى سكة أمل مقطوعة»؟!..

وإذ انتهينا من غسل أيدينا ميل أخى «عبد المطلب» على أخى «عبد النور» ودار الهمس بينهما لدقائق. أخى «عبد النور» يلى أخى «إبراهيم» فى العمر لكنه يتفوق على الجميع فى نواح كثيرة: الوجاهة والرزانة والعفة وحلاوة اللسان والسعى المستمر إلى فعل الخير وأداء الواجب؛ حتى أن البلدة كلها تتخذه كبيراً لعائلتنا ولكن من الباطن. ولولا أن البلدة كلها تجمع على احترام الأقدمية فى البلاد وتحرص على قيامها فى صدارة تولى قيادة العائلات؛ لاعترفوا جميعاً بأن كبيرنا الحقيقى هو أخى «عبد النور حشلة» ولا كبير غيره. إلا أن الذكاء الفطرى الجميل المتأصل فى أهل بلدتنا يصنع للموقف غطاءً حريرياً جميلاً ناعماً: إنهم إذ يلجأون إلى أخى «عبد النور» للتحدث فى أمر يخص عائلتنا أو مطلوب من عائلتنا أخذ موقف بشأنه؛ فإنهم يقولون له: «كن وسيطاً لنا عند أخيك عبد المطلب فى الأمر الفلانى»!. بموجب هذه الصيغة التبريرية البسيطة والتى لم تتعدّ كلمة واحدة؛ قد يشرعون فى التفاهم معه على كل شيء باعتباره صاحب الكلمة النهائية فى الموضوع وفى كل موضوع..

أخى «عبد النور» هو الآخر جميل، يعجبك، يظل يستمع فى هدوء وروية فلا يقاطع المتحدث أبداً، بل لا ينى يشجعه على الاستمرار فى الحديث، بهزة من رأسه الدقيق ذى العمامة المذببة الشكل كالهرم، بمسحة من الإهتمام الشديد على وجهه القمحى اللون بقسماته الدقيقة

التى تحيط عينين صيقتين كثيفتين على ضوء شمس منفتحتين؛ نعكسان لون مياه الفيضان فى الترعة المتاخمة لدارنا على قمة شرخة أرضنا الزراعية الممتدة بمساحة عشرة أفدنة؛ حتى إذا ما شعر أخى «عبد النور حشلة» أن محدثه قد أفرغ كل ما لديه من شجون وشئون، شرع يعدل طوق جلبابه الصوف ذى اللون الرمادى حتى يتسق مع طوق الجلباب الحريرى الداخلى ومن تحته قطنية الصديرى الشاهى بأزراره الصدفية اللامعة أما الشال الكشمير ذو اللون السمنى الغامق فمطبق بالطول على ركبتيه تتدلى شراريبه الدقيقة، منفتحة الطوق يسرب يده إلى جيب الصديرى فيأتى بعلبة التبغ المعدنية البيضاء المنكلة؛ على مهل شديد يفتحها؛ على مهل أشد يبرم سيجارة؛ ثم يقدم العلبة إلى محدثه قائلاً: لف.

فإذا ما شرع المتحدث بلف لنفسه سيجارة يكون أخى «عبد النور» فدأشعل سيجارته ونفث الدخان من منخريه فى تركيز شديد لا تشى به نظراته الهادئة الوانقة المستفرة على بصر المتحدث فى تحنان وتقدير واحترام. بسرعة بديهته المشهورة يكون قد حلل الموضوع وعرف أصله من فصله من النهاية المحتومة له؛ يصير بإمكانه أن ينهى الموضوع قائلاً: رأينا فى هذا الأمر كذا وكيت، لكنه يقول لمحدثه:

ـ اطمئن! لسوف أتحدث مع أخى «عبد المطلب» الليلة وأوضح له كل شيء! وإن شاء الله ربنا يفعل ما فيه الخير»!..

بالفعل فإن ما سيراه أخى «عبد النور» هو الذى سيمشى فى نهاية الأمر؛ لأن أخى «عبد المطلب» ليس كبيراً إلا بحكم السن فحسب أما

أخى «عبد النور» فإنه عقل العائلة المدبر، هو الذى يخلصها من كل المشاكل والأزمات؛ بفضله تتحسن العلاقات دائماً بيننا وبين كل العائلات فى بلاد العب كله. وقد ورث هذه الشخصية - فيما يقول أبى - عن جده الذى كان سميراً لأفندينا كل مهمته فى الحياة أن يجيب على أى سؤال يطرأ على ذهن أفندينا فيريحه ويفسر له كل الأمور والأحلام يدلى بالمشورة والنصيحة وفضلاً عن ذلك يسامره فى سهراته الليلية يحكى له تاريخ السابقين ونوادر السلاطين والوزراء وحيل الملوك وعلوم الـفقهاء..

ورغم أن أخى «عبد النور حشلة» لم يواصل التعليم فى الأزهر الشريف إذ قفل عائداً إلى البلدة قبل حصوله على شهادة العالمية بسنتين نافراً من أهل المدينة ومن أساليب الفقهاء التى تسجن طلابهم فى عصور مضت وانتهى أمرها. فإن أبى حينما سأله أبى: لماذا عدت يا «عبد النور» مع أنك تحب العلم؟! قال له:

- يا أبى لقد تحولت إلى زير أصم تلقى فيه معلومات ميتة لا تسمن ولا تغنى من جوع! لقد طلبت العلم الذى ينير بصيرتى فى فهم الحياة فما ظفرت إلا بما يفصلنى عن الحياة برمتها يحملنى على ازدرائها يحولنى إلى حيوان يحمل زكائب من معلومات لا جدوى منها!! لقد علمت القرآن والحديث وهذا يكفينى فعلى ضوئهما سأكون مفيداً لكم فى الدار بإذن الله!! فلا تضق بى يا أبى فأنا لم أنس الفلاحة بعد وسوف تكون فأسى بفأس جميع إخوتى»!!..

لحظتـها انجعص أبى فى قعدته ملوحاً بذراعه كملك يخطب فى رعيته:

ـ وكيف لمن حفظ القرآن والحديث وحملهما على صدره أن يهان بفأس أو منجل أو محراث؟! لاوالله!! هذا لا يكون أبداً!! لقد وهبت للعلم الدينى ولن أستعيدك منه ثانية حتى لو ضقت أنت به!! إن العلم لن يضيق بك ودارى هى الأخرى لن تضيق بك»!!..

هكذا بات أخى «عبد النور» نصف إمام.. نصف فلاح، يؤم الصلاة فى غيبة الإمام الفعلى الذى ربما كان هو أكثر منه علماً؛ ويمسك بالمحراث فى غيبة من عليه الدور؛ وينوب عن أبى فى بعض المشاوير الحساسة، وسواء حضر أخى «عبد المطلب» أو لم يحضر فى أى مجلس فإن أخى «عبد النور حشلة» لابد أن يكون حاضراً؛ وقبل أن يلى أبى بأى رأى أو مشورة فلابد أن يميل على أذن أخى «عبد النور» ويدور الهمس بينهما لدقائق طويلة قبل أن تخرج الصيغة النهائية المنطوقة لرأى العائلة فى هذه الزيجة.. هذه المعركة.. هذه البيعة، هذه أو تلك من الأمور..

ومع أن الواقع قد رشح أخى «عبد النور حشلة» ليكون كبيراً للعائلة بل أقره على ذلك بالفعل. فإنه ـ الواقع ـ لم يرشحه لارتداء العباءة بعد. إلا أن أخى «عبد النور» هو أول المتمسكين بشريعة الحياة ونظامها فى بلدتنا؛ العين فى نظره لا تعلو على الحاجب مهما كانت الظروف والأسباب، ثم إنه ربما كان الوحيد فى بلدتنا الذى يمكن أن يستغنى عن العباءة فى مشاويره المهمة خارج البلدة ـ صحيح أن عدم ارتدائه

للعباءة قد يسبب له بعض الحرج وأحياناً بعض الجرح بأن يضعه على الهامش فى القعدة،أو يستهزىء به بعض الذين لا يعرفونه، لكن شخصيته المحبوكة، ومنطقه القوى سيجلبان له الاحترام بعد لحظات معدودة، بل ربما صار هو قمر المجلس والبقعة المضيئة فيه غير أنه يظل مع ذلك مجرد متحدث لبق، تظل شخصيته ناقصة ذلك الإهاب الذى يجعل منه سيداً يؤخذ كلامه كوثيقة لا رجعة فيها..

تلك هى النقطة التى تؤثر فى مشاعر أخى «عبد النور» فيكتم آلامه ولا يصرح بها؛ ونشعر نحن من طرف خفى أن غياب العباءة عن مظهر أخى «عبد النور» يجر عليه خسراناً وبيلاً؛ فتتخيل صورته بالعباءة فتشعر بمدى قيمة أن يكون كبيرنا وممثلنا فى أنظار العالم كله هو أخى «عبد النور». كنا جميعاً نحس بهذا الجرح الكامن فى صدر أخى «عبد النور» بسبب عدم قدرته المادية على شراء عباءة خاصة به؛ إلا أخى «عبد المطلب» ينجح دائماً فى التغاضى عن هذا الأمر. غير أن الذى لم نكن نتصوره مطلقاً أن نكون جميعاً طامعين فى العباءة إلى هذا الحد؛ فكل واحد قد أخذ يسعى بشكل أو بآخر لكى تجىء العباءة ملكاً مشاعاً يصبح من حق كل واحد أن يرتديها فى أى وقت يشاء لتمكث عنده وقتاً معيناً دون اعتراض من الآخرين.

بعد ودودة طويلة بين أخى «عبد المطلب» وأخى «عبد النور» انسلخ وجه أخى «عبد المطلب» عن أذن أخى «عبد النور» وصاح بلهجة النقباء المفوضين فى توزيع الأنصبة:

ـ يا جماعة! آن الأوان لأن يعرف كل واحد دخله من خرجه»!..

لحظتئذ تململ أخى «عبد الرشيد حشلة» فى جلسته؛ إذ اعتدل متربعاً واضعاً يديه فى حجره فى هيئة المتمثل للإصغاء بكل جوارحه..

فالواقع أن أخى «عبد الرشيد حشلة» كان ينتظر هذه الفرصة من زمان؛ ورغم أنه لم يصرح بذلك مطلقاً فإننا كنا نلمح تحرقه للحظة توزيع الميراث حتى يعرف هو - وهو بالذات - ما له وما عليه؛ ليس فحسب لأنه أوضحنا جميعاً فى الرغبة فى امتلاك العباءة والولع بارتدائها، حيث هو الوحيد الذى بات يجرؤ على استعارتها ليذهب بها إلى مشوار مهم مع أن مشاويره ليست مهمة

على الإطلاق إن هى إلا صرمحة وبغددة على الطريق الزراعى المحاذى لترعة السلامونية مصطنعاً هيئة الرجل المهم لتهتز لمرآه قلوب فتيات يملأن البلاليص من الترعة..

ليس لهذا هو متحرق للخطة توزيع الميراث؛ إنما لأن موقفه حساس جداً؛ إذ هو أخ غير شقيق؛ هو الوحيد فينا من أم أخرى تزوجها أبى من قرية بعيدة ذات يوم إثر نزوة طائشة ألمت به بعد خناقة حامية مع أمى قرر فى وطيسها ليتركنّها ويتزوج من سيدتها..

والواقع - فيما يقول التراث الشفاهى الضاحك لعائلتنا - أن أبى كان واقعاً تحت طائلة حالة انتهازية خرقاء هيأت له أنه يمكن - بزيجة عابرة - أن يصبح من سادة علية القوم بأن يتزوج من بيت فيه عضو بالبرلمان. وبالفعل باع فداناً واكتسى جوخاً وصوفاً وحرائر، ثم اصطحب نخبة من ذوى العباءات وراح يخطب ابنة «عثمان بك الفرارجى»، الذى اتضح أ ن البكوية لم تكن رسمية بالنسبة له إنما هى

عرف سائد فى العائلة التى بها أكثر من باشا إذ يصبح أبناء الباشوات بالضرورة بكوات، حقهم فى اللقب شرعى وأقوى من مرسوم ملكى إذ تمنحه لهم الناس بحكم الأمر الواقع..

تضحك جدتى - أم أبى - فينفشخ حنكها الخرب ذو التجاعيد الكثيفة بجلد مدبوغ جاف وهى تغمز نحو أبى ساخرة: «كان هو الآخر طامعاً فى البكوية»..

هى إذن متعصبة لأمى، لأن أمى هى ابنة أخيها وجدتى هى التى خطبتها لأبى منذ الصغر..

فلما أصبحت «حسنية هانم» كريمة «عثمان الفرارجى» عقيلة لأبى لم يجد أبى شيئاً من السعادة أبداً. لقد ابتنى لها بيتاً صغيراً محندقاً بجوار بيتنا، ملأه بالكتب والمفروشات الثمينة؛ لكن البكوية لم تكن فى طبع أبى ولا فى سلوكه؛ و«حسنية هانم» لم تعتد سوى سلوك البكوية؛ تطلب من يوقظها من النوم بوردة يمررها على صفحة وجهها كما اعتادت؛ فى حين يصحيها أبى بزغدة موجعة؛ فإن تبرمت فربما زغدها بقدمه المفرطحة فإن كثرت فى الكلام ربما شكمها فى بوزها بقبضته. وهى تطلب من يغسل لها ثيابها الشفتشى وأبى يطلب من زوجه أن تغسل فانلاته المزيتة بالعرق وغبار الطريق وروث البهائم. هى تأكل بالشوكة والسكين وأبى يفسخ الظفر بأصابع كالكماشة ويشرب المرق بالسلطانية رأساً. هى تهفو إلى طول المداعبة والتدليل والتحنين والزلفى، وأبى يريد اختراق الأمور مباشرة والدخول فى الجد مرة واحدة. هى ناعمة الملمس تتزفلط فى الفراش، وأبى خشن غاية

الخشونة وكعب قدميه متشقق كشقف مدبب إذا احتك بساقيها شرخها شروخاً دامية..

على هذا امتلأ الليل والنهار بوجع الدماغ؛ أصبحت الوفود رائحة غادية بين البلدين في مفاوضات ومصالحات لا تنتهي؛ أصبحت الركائب تنهب الطريق ذاهبة بحسنية هانم في غضبة قد تمتد شهوراً، لتعود الركائب فتنهب الطريق عائدة بها في صلح ميئوس من استمراره.. إلى أن ذهبت في غضبة طويلة استمرأها أبي ثم اكتشف الراحة في غيابها فبات ميالاً لمفاوضات الطلاق. حينما اقتنع بضرورته أصبح مستعداً للتضحية تجنباً للفضيحة واتقاءاً لشرور عائلة مرهوبة الجانب لا قبل لعائلتنا بمخاصمتها فباع فداناً آخر ليدفع لها مؤخر الصداق؛ وسلم قائمة العفش بكل ما يحويه البيت؛ لأنه فيما قيل كرهها كرهاً شديداً فلم يرغب في استبقاء شيء يذكره بها..

إلا أن القدر كان يدخر له أخي «عبد الرشيد» كأنها قد باتت ماثلة أمامه إلى الأبد.. والحق لقد تقبل أبي الأمر بكل شجاعة ورجولة؛ فرح بأخي «عبد الرشيد» من قبل أن يولد؛ وحمد الله أن بطن «حسنية هانم» لم تترك له أنثى وإلا كانت الهموم فوق ما يحتمل. أما وقد جاء المولود ذكراً فقد ظل يرعاه في حضنها ينفق عليه حتى تهيأت لحسنية هانم زيجة من طينتها فجيء بأخي «عبد الرشيد» ليعيش معنا وهو في سن الدخول إلى المدرسة؛ فأكرمت أمي وفادته، ليس لأن جدتي الحشلاوية سلطت عليها سيف الإرهاب لتعنى بالولد، وإنما لأن أمي كانت بالفعل تحبه وتشفق عليه خاصة أنه لم يكن يشبه أمه على الإطلاق في أي

شيء؛ وقد ظل ينمو في حضن أمي حتى أن الكثيرين من صحابه وزملائه يتصورونه ابنها، سيما وأن زيجة أبي تلك قد انمحت تقريباً من ذهن القرية بفعل أحداث كثيرة عمرت بها ليالي البلدة جاءت بها الثورة عبر الراديو الذي أشاع في البلاد أنساً كبيراً. وحينما كان أخي «عبد الرشيد» يقول لأمي: يا أم، كان يقولها بحرارة وصدق شديدين ..

حنت عليه أمي لدرجة كانت تدهشنا؛ تربت على كتفيه في رقة دافقة حين تستحثه على المذاكرة؛ تغمره بقروش من وراء أبي، تعد له زوادة حافلة بالقراقيش والمش والجبن والقشدة والفطير والأرز المعمر ليتعشى ليلة وصوله البندر. مع ذلك لم ينس أخي «عبد الرشيد» أنه ذو وضع خاص، وربما كان إحساسه بخصوصية وضعه هوالحافز على تفوقه الدراسي؛ إذ اجتاز سنوات الدراسة بتفوق وسلاسة عجيبين كأنه طائر يقفز على الأفنان. فجأة انتبهنا إلى أنه يستعد لامتحان ليسانس الحقوق ثم يحصل عليه. وفجأة انتبهنا إلى أنه صار رجلاً ملء هدومه طولاً وعرضاً بل يكاد يكون الوجيه الوحيد فينا؛ حتى إذا طرح العباءة على كتفيه برز في خيطها الأسود اللامع عنق تخين بوجه دائري متورد تنطق ملامحه بالعز والسيادة والزعامة سيما وأن صوته جهير عميق رنان، خاصة إذا تكلم بالفصحى كلاماً في القانون والشريعة والأخلاق. ولأنه طالب الحقوق الوحيد في بلدتنا فقد حظي بلقب الأستاذ من أول عام التحق فيه بالكلية. ومن عام إلى عام تزداد مكانته رسوخاً في قلوب أهل البلد؛ وبعضهم يلجأ إليه في استشارات قانونية حول الملكيات والجرائم والشتائم والخلافات بجميع أنواعها؛ وبعضهم ينتدبه لحضور مجالس الصلح، أو لفض الاشتباكات؛ كما أن مرشحي الدائرة يخطبون وده..

الفخر به ظل يلمع فى عينى أبى حتى لحظاته الأخيرة. كان يحلو له فى مجالسه الخاصة قوله المستمر: «عبد الرشيد ابنى فسرها لى من الناحية القانونية بكذا».. «سأعرض الأمر الفلانى على ابنى عبد الرشيد لأعرف رأى القانون فيه».. إلخ. إلخ. وفى سنواته الأخيرة لم يكن أبى مجرد كبير عائلة ولابس عباءة؛ بل كان وفداً كاملاً يهتز لوقعه أعتى القلوب فى أى مفاوضة أو مجلس بيع أو شراء. يضم الوفد إلى أبى أخى «عبد المطلب حشلة» وأخى «عبد النور حشلة» وأخى «عبد الرشيد حشلة»؛ يتولى أبى الكلام على راحته بكل ثقة؛ تحت جناحه يقوم أخى «عبد المطلب» بأمر المفاوضة فى البيع والشراء أو فى الصلح المرتقب؛ له هو الآخر أن يحتد فى الكلام يرعش طراطير وزعابيط متطاولة؛ ليمضى فى أثرها أخى «عبد النور» بلسانه الشبيه بلوح الصنفرة يمر على الكلام الذى قيل فينعمه يزيل نتوءاته الخشنة بطيب خاطر المستمعين يلقى البلسم اللطيف على جروحهم يهدهد أعطافهم فتتهادى من البهجة أفئدتهم فيبسمون قائلين: «ماشى ياعبد النور!! كل ما تأمر به ماشى لأجل خاطرك ولسانك الحلو كل شىء يهون»!!.

أما أخى «عبد الرشيد» فإنه جاهز للمشورة القانونية فيما ينفع وما لاينفع فى الإتفاقيات؛ سرعان ما يستل قلمه الأبنوس من جيب الصديرى والعريضة من حافظته الجلدية التى يذهب بها إلى الكلية يشرع فى كتابة عقد الإتفاق.. عقد البيع.. عقد الصلح.. قائمة عفش الزواج؛ وإذ يرفع ذراعه البيضاء المتختخة وقد انحسر عنها كم الجلباب البوبلين الأبيض، ممسكاً بالورقة ليقرأ على الجميع صيغة ما كتب فإن صوته يشيع الأنس والفرح فى كل السامعين فيقنعهم بأنه ولد ليكون محامياً لبيباً..

بفضل كل من أخى «عبد النور حشلة» وأخى «عبد الرشيد حشلة» اتسعت تجارة أبى فأصبحنا أهل زراعة وتجارة معاً، صار لنا مخازن للحبوب والأقطان والأخشاب،ومواش، وأراض للبناء. كان دماغ أبى هو الدفتر الأكبر والمرجع الأوفى حين يعجز الدفتر المكتوب عن الإتيان بالتائهة..

ولأن أخى «عبد الرشيد» كان صاحب الدفتر المكتوب من صغره فإنه قد بات يعرف كل صغيرة وكبيرة فى ثروة أبى. لهذا حرص أخى «عبد المطلب» على مصافاته وكسب وده باستمرار؛ لم يكن يبخل عليه بأى طلب، وعند الكسوة له قطعتين من الصوف الإنجليزى المعتبر لتفصيلهما بذلتين واحدة للشتاء وأخرى للصيف فى حين يكتفى كل رجل من إخوتى الكبار بجلباب واحد من الصوف عند بيع القطن فى السنوات الأخيرة لحياة أبى حيث كان هو المتولى لهذه الشئون. كانوا جميعاً يفرحون بكثرة عدد البذلات عند أخى «عبد الرشيد» لأن البذلة منها - كما يقول أخى «عبد النور» دائماً - هى وجه العائلة الآخر بعد الجبة والعمامة فكأننا قد جمعنا بعون الله بين علم الدين وعلم الدنيا كما عقب أبى ذات يوم..

إلا أن حبنا لأخى «عبد الرشيد حشلة» كان كبيراً لأنه كان رائدنا فى دخول المدارس. هو الذى فتح شهية أبى لإدخال أولاده المدارس.

بتفوقه شجع أبى فأدخلنى المدرسة الابتدائية فى دسوق حيث أسافر إليها كل يوم بالقطار؛ فما كدت أحصل على الثانوية العامة وألتحق

بقسم الاجتماع والفلسفة فى كلية آداب الإسكندرية حتى لحق بى أخى «توفيق» الذى ما كاد يحصل على دبلوم التجارة حتى لحق به أخى «رفعت»، الذى ما كاد يحصل على دبلوم الزراعة حتى لحقت به أختى «تفيدة» فالتحقت بمعهدالمعلمات فى طنطا؛ ثم لحقت بها أختى «شاهندة» فالتحقت بمعهد التمريض فى طنطا أيضاً ويوم أن مات أبى كان أخى «عبد الرشيد» قد صار موظفاً بالشئون القانونية فى مديرية الشباب بالمحافظة، وصرت أنا بواسطته أخصائياً اجتماعياً فى إحدى المدارس الثانوية؛ وكانت أختى «تفيدة» قد صارت معلمة فى مدرسة البلد؛ وأختى «شاهندة» ممرضة فى مستشفى عام بندر دسوق القريبة من بلدتنا حيث يمكن لشاهندة أن تبيت فى بيتنا كل ليلة دون كبير مشقة فى السفر خاصة أن عربة المستشفى تتكفل بنقلها وإعادتها من الباب للباب كأى حكيمة يتصل عملها بالمرور على المرضى فى بيوتهم؛ كذلك صار أخى «توفيق» سكرتيراً إدارياً بمصنع للكبريت فى مدينة الإسكندرية بواسطة أحد أخوالى الذى يعمل فى نفس المصنع قومنداناً؛ وصار أخى «رفعت» معاوناً زراعياً فى مديرية التحرير..

كثر عدد البذلات وأربطة العنق فى دارنا حتى كادت الجلاليب تتوارى، وكثر عدد الفساتين، وكثر عدد الركايب التى توصلنا إلى المحطة وتعود بنا فى نهاية الأسبوع كواجب مقدس لا نتخلى عنه مطلقاً. أصبح لقب أفندى جارياً على الألسن باستمرار حتى أصبحنا نتلذذ بلقب الشيخ ونحن نمنحه لأخى «عبد النور» فى تقدير وإجلال.

لم يكن أحد يتوقع أن عائلتنا يمكن أن تتجزأ بسهولة لشدة إحساسنا بالترابط والتآخى ومعرفة الحقوق والواجبات، ولشدة اعتزاز كل منا بالآخر. إلا أن الجميع فى بلدتنا كانوا مدركين أن الانفصال المستحيل بسبب الترابط والأخوة يمكن أن يصيرواقعاً؛ إذ أن الخلاف لابد أن يجىء من باب الهيافة وحدها، التى اشتهرت بها عائلتنان؛ إذ أن العراك يمكن أن يدب بيننا فجأة وربما بسبب لفظة قد يجرى الخلاف على معناها بين أخى «عبد الرشيد» وأخى «عبد النور»، أو بسبب النقاش حول السنن والنوافل وأمور الشريعة، ومتى قال «عمر بن الخطاب» قولته الشهيرة كذا، ومتى فعل «على ابن أبى طالب» فعلته كيت؛ إذ يجرى سحب الكتب والمجلدات من فوق رفوفها بعنف؛ تتفتح صفحات الصحاح والبخارى والطبرى وابن الأثير فى غضب، تعلو الأصوات رامية الأيمان المغلظة. قد يمتدالعراك فيتدخل الأجانب فى حذر وكياسة يخفيان شراً خبيثاً يرتدى ثوبَ السخرية والمرح فيشعلون نار الخلاف..

فإن لم يكن هذا فالعراك قد ينشأ بسبب اختلاف الأذواق والأمزجة حول تفضيل الشيخ «مصطفى إسماعيل» علىَ «عبد الباسط». هنا ربما قامت القيامة؛ أو تفضيل إحدى المطربات ـ كائنة من كانت ـ على «أم كلثوم»؛ أو بسبب المقارنة بين «عبد الناصر» و«سعد زغلول»؛ أو تفضيل أيام الملكية على أيام الثورة؛ أو ـ وهذا ما كان ينقصنا على آخر الزمن ـ بسبب تفضيل نادى «الزمالك» على النادى «الأهلى» ولو فى هذه المباراة أو تلك من المباريات التى أصبح الراديو يذيعها بانتظام ليدخل على بلدتنا نجوماً جداً مثل «الضظوى» و«الديبة» و«أبو حباجة» ناهيك

عن «محمد عبد الوهاب» و«ليلى مراد» و«طه حسين» و«العقاد» و«فكرى أباظة» و«أبو لمعة» و«الخواجة بيچو» و«الفار» و«الجزار» و«حسنى الحديدى» و«آمال فهمى» و«جلال معوض».

* * *

فى هدوء منقطع النظير عرف كل رجل وكل أنثى نصيبه من الميراث على وجهه الدقة والتحديد. تم بيع وشراء جزئى، وتعويضات عن أوضاع مجحفة فى مقابل أوضاع متميزة، واتفاق على تأجير بين الأفندية وكل من أخى «عبد النور» و«إبراهيم» المكلفين بالمزرع والحرث، كما تمت مقايضات ومقاصات بين حجرات فى البيوت وأبسطة وفروشات ومخازن حبوب ودواب. حتى المتروكات الشخصية تم توزيعها بكل أريحية. بادىء ذى بدء خرجت العباءة من عملية التقسيم بتواطؤ من الجميع بشكل خفى ملموس بل ومصحوب ببعض الغمزات الضاحكة. ثلاث من الجلابيب الصوف آلت إلى أخى «عبد النور» بطلب صريح منه؛ أما القطنية الشاهى والشال الحرير فقد أخذهما أخى «عبد الرشيد» لغير ضرورة واضحة؛ أما بقية الجلاليب البوبلين والصدارات والفانلات والسراويل فقد كان أخى «إبراهيم» قد عربن عليها مع جدته وتم حجزها مبكراً فلم تطرح للتقسيم أصلاً. ساعة الجيب ماركة الترماى بكتينة فضية هى الأخرى كانت قد تم شبكها فى

عروة صديرى أخى «عبد المطلب» قبل موت أبى بشهور قليلة فاعتبرت كذلك أمراً واقعاً لا يجوز طرحه. وقد تصادف أننى فى ذلك العام كنت قد وقعت فريسة لمرض مجهول الهوية يشحب منه الوجه وينطفىء برق العين يحل مكانه اصفرار، حتى يئسوا من علاجى رغم كل ما صرفوه فاستعدوا لموتى بكثير من الحرقة والأسى؛ فلما فوجئنا جميعاً بأن المرض قد انزاح عنى من تلقاء نفسه بمجرد انقطاعى عن تناول أى دواء؛ ما صدق أحد أنى برئت، فبت محل عطفهم جميعاً؛ وحق لى أن أكافأ بشىء من متروكات الوالد على درجة من القيمة يجب الاحتفاظ بها؛ وقد نشنت على خاتم ذهبى بفص من العقيق الأحمر كان أبى يضعه فى بنصره وكان يعتز به لأنه اشتراه بأول فلوس دخلت جيبه من عرق جبينه فى شغل السوق؛ أظنها كانت سمسرة على بيع بهيمة هزيلة نجح فى بيعها بثمن كبير حقق له عمولة مجزية فأوصاه أبوه - جدى - بتخليد هذه المناسبة فى تشخيص يستطيع رؤيته على الدوام حتى يظل دائماً أبداً فى لذة الشعور بالكسب الحلال. كان الخاتم واسعاً بشكل كدرنى تكديراً إذ هو جميل وفصه مريح للعين والأعصاب، لدرجة تمنيت أن لو كان بالإمكان تتخين الأصبع بعملية جراحية لأن تصغير الخاتم عند الصائغ لم يكن أمراً مثيراً للإطمئنان؛ فلما شعر أخى «عبد الرشيد» بكدرى قام وعكرش فى قعر الدولاب حتى جاء بفتلة من الدوبارة الحرير أخذ يلفها حول رفعة صغيرة من دبلة الخاتم ويعقدها ويكورها حتى صنع لها حجماً سميكاً اختصر من اتساع الدبلة فإذ لبسته فى الخنصر انحشر متثبتاً فاختبأت عقدة الفتلة فى راحة اليد، وسطع

على ظاهرها فص الخاتم كقطرة من الشفق القانى على أديم فى لون الياسمين.

وكانت سعادتى به تتزايد كلما اضطرت مع الأيام إلى فك جزء من الفتلة الملفوفة حول دبلته. وكان فص هذا الخاتم يستفز بقية إخوتى بشىء من الغبطة؛ وكان أخى «عبد المطلب» يحرص دائماً كلما رآه أن يمتدح جماله فى أصبعى؛ والواقع أنه يذكرنى بأنه هو الذى ساندنى فى الحصول عليه، لكى أسانده فى استيلائه على العباءة. أما العصا الأبنوس أم عوجايه مطعمة بالفضة فقد آلت إلى أخى «عبد النور» دون منازع.

* * *

ظلت العلاقة بيننا سمناً على عسل حتى دهمنا موت «جمال عبد الناصر» فانقلب حال الدنيا ومال. انفتحت جحور كانت مخفية تحت الأرض فخرج منها ناس كانوا طوال السنين الفائتة يدبرون لنا المكائد والمغارز فيما نحن مفتونين بالأملة التى كانت شملتنا إذ بات متاحاً لابن الأجير أن يكون وكيل نيابة، وللعامل نفسه أن يكون عضواً بالبرلمان، ولابن الفلاح أن يكون ضابطاً وطبيباً وأستاذاً فى الجامعة..

فجأة وعلى غير انتظار أو توقع أعطتنا الدنيا ظهرها فى لفة سريعة خاطفة؛ ما درينا صبح ذات يوم إلا والكرة الأرضية قد دارت ونحن ثابتون فإذا نحن فى الجزء البعيد عن أشعة الشمس وضوء القمر. طلع علينا رئيس جديد قديم متقاعس كاره للشعب المصرى بذىء اللسان يتذرع بالضباب ويهدد بالفرم كل من يعترض طريقه. فى ظله الكثيف حورب الوطنيون والشرفاء فى كل مكان بدعوى الشيوعية تارة والتطرف الدينى تارة أخرى. كل الأكفاء رحلوا عن البلاد يلتمسون الرزق والحرية فى بلاد لا تعرف شيئاً عن الحرية. أصبحت الوطنية

قريناً للسجن والخيانة الهازلة قرينة للثراء، والشرف قريناً للفقر والذل والإنسحاق. عاد عصر الباشوات بكل حذافيره. إصطلحت الحكومة مع إسرائيل؛ اصطلح الشعب مع التسيب والتفكك والإنهيار. اشتعلت نار الأسعار.. اتسعت الطموحات.. اقترب الكثير من المستحيلات صارت واقعاً مرئياً. لم يعد فى بلدتنا رجال حقيقون فيما عدا العجائز والكسالى والعجزة..

. شأن كل العائلات فى البلدة تصدعت عائلتنا، حتى أصبح أخى «عبد النور» يصفق كفاً على كف كلما نظر فى المندرة الفارغة أو فى الدار الساكنة ويقول فى أسف وهذيان:

- مصر هاجرت كلها يا جدعان!! مصر تركت مصر وراحت تشتغل خادمة عند من لا عمل لهم سوى فرك أصابع أقدامهم المفرطحة فيما هم جالسون يستعدون لأكل الخرفان المشوية بنفس الأصابع!! حل الخراب يا جدعان! ماذا تنفع الفلوس فى الذى انهدم؟! الدارملآنة بالعيال لكن يا فرحتى بكثرة عدد اليتامى!! أولاد الغائبين عمرهم ما ينفعوا! عمر المرأة ما تربى شاباً يحمل نافا!! رحمك الله يا «سعد زغلول» يا من قلت: مفيش فايدة!! رحمك الله يا «عرابى» يا زعيم الفلاحين يا من قلت للخديوى متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً!! رحمك الله يا «عبد الناصر» يا من جئت تطلب تحريرالرقاب من ذل الاستعمار فوضعتها فى قبضة العسكر فى ذل الكبت والقمع والقهر حتى شمت فيك وفينا العوازل!! ها هى الرقاب وضعت نفسها فى خية الفلوس التى استعبدتها!! رحمك الله يا من قلت إن الأطفال هم رجال المستقبل تعال شف وكستنا اليوم فى عبيد المستقبل»!!..

هذا ما كان يحكى لى من زوج أخى «عبدالمطلب» كلما سافرت إلى البلد في مشوار عاجل وضرورى؛ تفسر هذه اللوثة التى أصابت أخى «عبد النور حشلة» فأفقدته حكمته واتزانه بعد إذ رأى البلدة كلها قد هاجرت..

كان يصر على إقامة طقسه اليومى؛ فيأوى إلى المندرة مساء كل يوم؛ يضىء الكلوبات كلها كالعادة؛ يسوى فرش الكنب وحصائر الأرض؛ يأمر بوضع الطبلية الكبيرة وفوقها صينية العشاء العريضة، يأمر بإنزال الشلت والمساند تتحلقها فى انتظار قدوم رجال العائلة واحداً بعد الآخر لتناول العشاء جماعة رغم يقينه أنهم جميعاً قد باتوا وراء البحار والمحيطات والأنهار تفصلهم جزر وطائرات. فإن تراخت نسوان الدارفى تنفيذ طلبه صاح فيهن وهاج هياجاً مدوياً لا يهدأ حتى بعد أن ينصبن المائدة كاملة لعائلة بأكملها كما جرت العادة منذ سنوات طويلة مضت؛ صحيح أن العشرة الجماعية كانت قد أصبحت تتم مرتين فى الأسبوع خميساً وجمعة لكنها كانت تتم، فالأسبوع فى ذيل الأسبوع يصنع اشتياقاً وبهجة أما الآن فقد انتهى الونس تماماً؛ النداهة ندهت على الجميع فلبوا نداءها يعلم الله ماذا ستفعل بهم هذه الجنية. لكن انفعال أخى «عبد النور» سرعان ما يهبط ببطء تفرضه لحظات انتظاره متربعاً أمام الطبلية يبسمل ويحوقل بختام صلاة العشاء لا يرفع غطيان الأطباق، ومن حين لحين يرفع رأسه محملقاً فى مدخل المندرة لدى أى ظل عابر؛ لا يطيب جراحاته إلا إن تصادف وجود أخى «عبد المطلب» فيدخل عليه يشجعه على الأكل مستدعياً صبيان العائلة الذين يستعجل استرجالهم تعويضاً عن آبائهم الغائبين..

أسوأ الليالي هي تلك التي يضطر فيها أخي «عبد النور» إلى رفع غطيان الأطباق ليأكل وحده؛ إذ يتجرع الطعام بملامح ملتوية في تقزز وقرف. إن هي إلا دقائق حتى يزيح الطبلية من أمامه أو يتزحزح هو إلى ركن بين كنبتين، حيث أعدت له عدة الشاي كاملة؛ فيشعل الوابور ويملأ البراد عن آخره؛ ثم يصب الشاي في عدد من الأكواب؛ ليضطر إلى شربها واحدة بعد الأخرى فيما هو منفرط في بكاء صامت حراق تختلط دموعه الغريزة بالشاي في الكوب فيما يلبث حتى يدلقها على الأرض تحت انكنب ليمسك بالكوبة الأخرى وهكذا..

في الغالب يكبس عليه النوم في مكانه حتى يتعالى شخيره فتدخل جدتي كي توقظه ليصلي الفجر جماعة أو يذهب إلى سريره في حضن زوجه المسكينة التعيسة؛ فيمتثل لها كطفل مقهور لا يقوى على الكلام.

كان أخي «عبد الرشيد حشلة» رغم إنبساطه انمادي بحكم ما آل إليه من ميراث لا بأس به إلى جانب مرتبه في الوظيفة الحكومية - هو أول من فكر في الرحيل. قال إن الذل في البلاد قائم قائم؛ ذل بذل يكون الذل المصحوب بدخل مادي كبير هو الأفضل. وحين عارضه بعض إخوتي الحريصين على بقاء العائلة بشكلها المهيب المتمثل في عدد رجالها ذوي المراكز المرموقة؛ ورد عليهم قائلاً:

- أعطوني سبباً واحداً يجعل البقاء في مصر ضرورياً!! هاتوا لي واجباً واحداً يستحق أن أبقى من أجله وأنا أبقى!! لست متزوجاً! لست هارباً من الجندية!! لا أستطيع أن أقول رأياً في أي شيء وإلا فمصيري السجن أو الاضطهاد أو الإهمال!! لست أجد مجالاً أحقق فيه ذاتي

وأكتشف مواهبي!! الجهة التى أعمل بها لا تريدنى لا ترحب بحضور أى موظف لكى ينفرد رجالها المهيمنون عليها بتقسيم الغنائم!! لا أستطيع أن أشكو أى رئيس لى فى العمل فلا يمكن لمرءوس فى مصر أن يكسب قضية ضد رئيسه مهما كان الحق فى صفه والطغيان واقعاً عليه!! ولكن لماذا تلومونني على الرحيل والرئيس «السادات» يدعو الناس صراحة إلى الهجرة؟ وكتابه وصحفيوه يزينون للناس حلاوة الهجرة وفوائدها العظيمة؟ يحرضون الشباب على السفر فى بلاد الله خلق الله وتحصيل لذة التشرد والتيه هم يريدون التخلص من الشباب الذين قد يطالبون بحقوقهم فى البلاد!! هم يريدون التخلص من الشعب كله لتخفيف أعباء المسئولية عنهم فيروق بالهم يعيشون كالملوك يبيعون فى البلاد كيفما يشاءون لا يعترضهم أحد لأنه قد ثبت أن البلاد لا تتسع إلا لهم ولمجلس شعبهم ووزرائهم ومدرائهم وصحافتهم وإذاعاتهم وكل من يعملون فى تحويط ظهورهم وشغل الناس عنهم!! لاتؤاخذونى يا ناس فقد أفنيت نصف عمرى فى أوهام ثبت الآن بطلانها بالدليل القاطع! أوهام من العلم والشهادات فلم يفز بالمركز المرموق فى العيش الرغيد سوى البلطجية واللصوص والتجار!! وأوهام من الوطنية حين ناضلت بين الطلاب فى رئاسة اتحادهم فانضربت وانسجنت ثم مكثت فى الجيش من حرب الاستنزاف حتى حرب العبور فلم يفز بعبورى سوى تجار الفراخ الفاسدة وشيوخ البترول ووكلاء الشركات الأجنبية وطبقة الحكام بجميع طوائفها وأذيالها!! وأوهام من الثقافة فإذا هى مضروبة بالصرمة القديمة فى كل مكان يغلق المجلات وسجن الكتاب وبهدلة كرامة الشرفاء وفتح السبل للأدعياء والسفهاء!!

وأوهام من القومية العربية فإذا الحقيقة المرة أن ليس يجتمع عربيان إلا وكان الشيطان ثالثهما!! فما هي لزمتي بالله عليكم ها هنا؟! أي فرق بين أن أعيش هنا أو في سفنن القرود؟! الصياع هذا عصرهم! فكما زاد عدد الأثرياء ثراءاً فاحشاً كثر الطلب على الخدم والحراس والخصيان والمرتزقة والبلطجية والمارقين والشاطرين والبائعين ضمائرهم وأفكارهم الشريرة!! من حسن الحظ أنني لم أفجر بعد إلى هذه الدرجة! سوف أكسب رزقي من عرق جبيني!! سأكون محامياً في الشئون القانونية للبنك المركزي الكويتي! أنتم تعرفون أنني تقدمت بطلب للعمل على سبيل المزاح لأن مثل هذه الوظائف محاط بسياج من الوساطة والرشوة! فلما دعيت للمقابلة والاختبار دخلت عليهم بكل هدوء واستهانة فأجبت على أسئلة متنوعة المقاصد والأهداف! من الاقتصاد السياسي إلى الشريعة الإسلامية إلى القانون الدولي إلى نظم التعامل واللوائح!! وإذا بي بعد أيام قليلة أتلقى خطاباً بنبأ اختياري فلا أجد الآن مبرراً للتراجع عن السفر! هذه فرصة بعثها الله لي فلماذا أفرط فيها؟! إن نصيبي من الأرض يزرعه إخوتي وثقتي في أمانتهم كبيرة فدعوني أجرب حظي.. أغير هذه المناظر الكئيبة وأجرب ركوب الطائرات والسيارات الملاكي»!!.

تقول أمي وهي تحكي لي نص ما قاله بالحرف مؤكددة أنه لحظتها كان في حالة من المرح لم تره فيها من قبل أبداً؛ كان كالسجين الذي تلقى أمراً بالإفراج على غير توقع؛ لدرجة أنها تألمت فلكزته في كتفه صائحة بنبرة خجلة:

ـ تفرح هكذا لفراقنا يا «عبد الرشيد»؟ يخونك العيش والملح»!..ـ

فرد عليها ضاحكاً:

ـ بعيد الشر يا أم! لا كتب الله علينا الفراق أبداً! اللهم اكفنا شر الفراق فإنه الموت والعياذ بالله! أنا معك يا أم بأن سفرى هو موت من نوع آخر لكنه مؤقت على كل حال ستظل معه العلاقة دائمة والود متصلاً فلسوف أبعث لكم برسائل ولسوف أجيء محملاً بالهدايا فادع لى يا أم أن يسترنى الله فى غربتى»!..

فرفعت أمى يديها نحو السماء مبتهلة إلى الله أن يفتحها فى وجهه ويوقف له أولاد الحلال فى كل مكان وأن يكتب له الستر ويجنبه الفضيحة فى كل خطوة يخطوها. كان صوتها مؤثراً منفعلاً حتى ـ تقول ضاحكة ـ إقشعر بدن أخى «عبد الرشيد» فأقسم بالله أنه يكاد يرى الله وقد تأثر من كلامها ومن صوتها..

ظلت أمى منبهرة بهذه النكتة اللطيفة التى قالها أخى «عبد الرشيد» لأيام طويلة تذكرها بدون مناسبة لتنهيها قائلة وهى تضحك فى كمها: «إلهى يمسيك بالخير يا دى الجدع»!! وكانت واثقة من أنه يحبها بصدق فلا يكف عن إرسال السلام إليها فى كل خطاب يرسله إلى أخى «عبد النور»، مكرراً أن الله قد استجاب بالفعل لدعائها فأغرقه فى النعيم. كذلك كان ينتهز فرصة العثور على مسافر من بلدة مجاورة لبلدتنا فيرسل إليها الطرح والمناديل والشباشب والأقمشة، فتنخرط فى الدعاء بحرارة لأنه فى نظرها قد نسى أمه الأصلية وتذكرها هى، أمه الحقيقية..

الإغراء بات مثيراً؛ فلم يقبل العام الثانى إلا وكان أخى «توفيق» قد سافر إلى قطر، وأخى «رفعت» إلى البحرين، وأختى «تفيدة إلى السعودية، وأختى «شاهندة» إلى ليبيا..

حتى أخى «إبراهيم»، الفلاح الصرف، الذى لم يكن مقدراً له ترك البلاد باعتباره المسئول الوحيد عن فلاحة الأرض؛ هو الآخر قرر السفر إلى العراق ليمتلك أرضاً يستصلحها ويتزوج على وجه خاص من امرأة عراقية إلى جانب زوجه المصرية لينتج أولاداً عرباً بحق وحقيق..

تلك كانت هى المزحة الكبرى فى عائلتنا الشهيرة بشريان عرق الهيافة فى معظم رجالها جيلاً بعد جيل، مما جعلهم جميعاً من المعمرين إذ أنهم يضربون الدنيا صرمة ولا يدخرون حزناً فى صدورهم. موقف أخى «إبراهيم حشلة» صار مثار تندر شديد بين عجائز البلدة لشهور طويلة؛ إذ كيف يكون للرجل أرضاً زراعية يملكها ويتسيد عليها ثم يتركها ويذهب إلى أرض تستعبده وتستذله وتبعده عن أهله دون عائد مضمون؟! ثم كيف كان هو يرد عليهم ساخراً بأن مهمته كبيرة إذ أخذ على عاتقه إنجاب عرب ذى أمخاخ وعقلية نيرة..

الواقع أن أخى «إبراهيم حشلة» بالذات كان مضروباً به المثل فى الهيافة إلى حد أنه كان ينتدب من بعض كبراء البلدة لأخذ رأيه فى موضوع أو خلاف، لكى يتولى تسطيحه وتحويله إلى موضوع فى منتهى الهيافة يشبع الناس ضحكاً حتى النخاع. أسهل شيء عند أخى «إبراهيم» هو إطلاق الأحكام الكبيرة فى بساطة مدهشة؛ يرسلها فيما هو يقع على الأرض يحتجز تحت آليته طرف حبل من التيل تعمل يداه

فى فتل طرفه العلوى؛ كأن يقول له أحدهم فى حزن وكدر واضطراب:

ـ أما علمت يا أبا حشلة؟ فلان اليوم قتل فلاناً بضربة فأس واحدة»!!..

فيرد أخى «إبراهيم» فى الحال:

ـ إه! ضربة أبرك من عشرة! أم أنك كنت تطلب ضربتين»؟!..

وإذا قالت له أمه:

ـ الطحين خلص يا إبراهيم!..

يقول:

ـ خلصت روحه! مفيش حد مخلد فيها حتى الطحين! ونحن أيضاً سنصبح طحيناً ونخلص!..

وبدلاً من أن يقوم فيشد الركوبة بسرعة ليحمل الحبوب إلى ماكينة الطحين كما هو منتظر منه إذ أن هذه المهمة من بين مهامه؛ إذا هو يتراخى فى قعدته، يخرج علبة التبغ فيبرم سيجارة على مهل؛ يتكفل بتسفيه أى مشكلة تتحجج بها أمه:

ـ مفيش عيش للغد!!.

ـ وايه يعنى؟ نأكل ظفر!..

ـ الليل دخل!..

ـ محلاه! الليل ستره!

- انت يا ولد هابط وقليل الهمة!..

- عال! طولة البال تهد الجبال!.. إلخ.. إلخ.

وكانت جدتي - على شدة طول بالها - تتجنب الدخول معه فى أى حوار، لأنه لابد أن يوصلها بعد ثوان قليلة إلى حد فقدان الأعصاب وربماالعقل؛ ولابد أن تقذفه فى النهاية بفردة الشبشب أو بأى شىء فى متناول يدها.

وقد اعتاد أن يكون على استعداد دائم لتلقى هذه القذيفة بين كلمة وأخرى، ورغم مظهره غيرالعابىء بشىء فإنه ينجح دائماً فى الزوغان برأسه عن اتجاه القذيفة؛ ليعلق فى الحال بكل هدوء وبرود:

- ياوليـة أنت لن تتعلمى التنشين أبداً؟ لو كنت فى الجيش لحولوك لمجلس عسكرى!!..

فتكتم غيظها قائلة:

- نيت أمك جلست فوقك فطستك يوم ولادتك!.

فيقول:

- إه! والله ما كانت تقدر! كنت فطستها أنا!..

فى النهاية لابد أن يقوم فيذهب بالحبوب إلى ماكينة الطحين، يلهب ظهر الركائب نخساً حتى تنهب الطريق فى دقائق. فى الماكينة يهبط على الجميع كهم الموت كظل خفيف يزداد ثقله كلما طال مكثه فإذا هم يتخلصون منه بسرعة فيقدمونه خلسة على من سبقه فى الدور؛ يعنى لابد أن يعود بالطحين بعد ساعات قليلة..

ترى هل سينفع أخى «إبراهيم» هذا فى العراق؟ هذا ما كان الجميع فى غير ثقة منه. العجيب أنه نفع؛ فإن هى إلا شهور قليلة حتى جاء فأخذ زوجه وعياله؛ وكان من الواضح أنه عازم على الاستيطان. الأعجب أنه حقق وعده، فتزوج بالفعل من امرأة عراقية عذراء بخثم ربها؛ وأنجب منها ثلاثة صبيان توأم بعد مفرد. وقد خير زوجه المصرية بين أن تقبل هذا الوضع أو تعود إلى أهلها. ولأنها بنت عمه فقد كان عادلاً معها بصورة أذهلت الجميع، إذ رضى أن تعود هى بأولادها إلى البلد لتزرع فى نصيبه من أرض البلد وتعيش مع عيالها على ذمته أيضاً، على أن يعود إليها أو تعود إليه كل حين..

وقيل: لقد فعل ما فعل هروباً من تسلط جدته. وقيل: بل من ثقل الحمل عليه فى فلاحة الأرض. وقيل: بل هو الطمع فى الثراء السريع.

وقيل: إنما هى الرغبة فى تجديد الأهل والأوطان. لكن أمى كان لها رأياً آخر لعله أقرب إلى الواقع. ففى رأيها أن أخى «إبراهيم» فى قلبه دودة الغيرة إذ يرى إخوته الصغار كلهم يصيرون أفندية متعلمين وفى نفس الوقت أخذوا حقوقهم فى الميراث مثله؛ طلع فيها هو الآخر؛ أراد أن يكون أفندياً ولو فى بلد لا يعرفه فيها أحد، وأضافت:

- مسكين! طول عمره أهملناه! فرحتنا بعبد المطلب كانت كبيرة واستمرت كبيرة حتى نسينا «إبراهيم»! ظل «عبد المطلب» يرضع ويدفع «إبراهيم» عن ثديى حتى رضع مسماره! كان شقياً تجىء من ورائه المشاكل فيضربه أبوه من ناحية وأنا من ناحية وجدته من ناحية حتى مررنا عيشته!! لنشفان مخه وطول لسانه ياما أغاظنى حتى كنت أدعو

عليه بحرقة إلى أن يستبشع الناس كلامى فيستعيذون بالله! ! لم تكن تطوله يدى بسهولة فما أصدق أن أمسك به حتى أعجنه من الضرب!! يجىء كل يوم مهلهل الثوب من الخناقة مع الولاد فيأكل العلقة ويترك بالثوب المهلهل فيقابله أبوه فى الشارع فيضربه بالخيرزانة!! هو الوحيد من أبناء بطنى الذى عذبنى وعذب نفسه!! طفش منا ثلاث مرات فدوخنا وراءه فى بلاد الناس وفى كل مرة يجىء به أولاد الحلال جربوعاً بلبوصاً!! يعلقه أبوه فى سقف الزريبة فى حبل ينهال عليه ضرباً بالصرمة يتركه معلقاً بلا أكل حتى يتشفع له عمه الكبير!! سبحان من هداه فى شبابه وأقعده فى البلدة!! كنت متأكدة بقلبى أن الهجرة فى دمه وأن جنبه يأكله للرحيل!! الحمد لله على كل حال أننا الآن نعرف أين هو! نقدر على الاتصال به! فطالما أن حسه فى الدنيا فضل وعدل! كل ما يجىء من ربنا مقبول!!..

ولم يكن يبدو عليها ـ مع ذلك ـ أن ذلك مقبول؛ فالزفرة التى أطلقتها عقب هذه التصريحات تدل على شعور بالحسرة والإحساس بالذنب؛ وإلا فما معنى هذه الدموع الغزيرة التى راحت تهطل من عينيها؟

***

بدورى كنت أنتظر دورى فى الإعـارة من عـام لعـام، لكن مـهنة الإخصائى الاجتماعى لم تكن رائجة فى بلاد العرب؛ ربما ليس عندهم تلاميذ فقراء أبحث حـالتهم الاجتماعية. لقد أعيانى البحث عن مقاول من مقاولى التسفير يلحقنى بعمل مناسب؛ إلا أننى كنت مع ذلك حذراً لأن الصـحف كل يوم تبلغنا أنبـاء نصابين تم القبض عليهم بعد أن خربوا بيوت ناس راغبين فى السفر فأخذوا كل مدخراتهم فمنهم من كان يرمى بهم على الحدود ومنهم من كان يختفى شأن رءوس الفساد الذين كثروا وتغولوا بعد موت «السادات» فلم يجدوا من يردعهم أو يغلق فى وجوههم باب السفر..

كنت أطلب السفر بإلحاح ليس فحسب لاحتياجى لمزيد من الأموال بل لأنى لم أجد عملاً يشغل وقتى فى القاهرة، فلا أحد من رؤسائى يطالبنى بالحضور؛ وإن حضرت لا أجد أية أهمية لحضورى؛ الملل وحده كان يدفع بى إلى البلدة للعيش فيها بالمجان، فأفاجأ دائماً بأن دارنا قد بات يخيم عليها جو من الكآبة والموت، وهذيان أخى «عبد النور»..

أخى «عبد المطلب» هو الآخر انفتحت أمامه سبل جديدة للتجارة ألقى بنفسه فى أحضانها؛ من تجارة الملبوسات الواردة من الخليج وبورسعيد، إلى تجارة شرائط الفيديو، إلى تجارة أراضى البناء. وآخر ما كنت أتصوره أن تصبح فى قريتنا تجارة للسيارات، وأن يكون أخى «عبد المطلب» أحد رجالها الأساسيين، وأن يمتلك ثلاث سيارات من ماركات قديمة يطلقها على الطريق بين دسوق وبلدتنا بالنفر تعمل ليل نهار..

المصيبة أننى بعت نصيبى فى الميراث أرضاً ومنزلاً لكل من أخى «عبد المطلب» وأخى «عبد النور» لأدفع ثمنه خلو رجل فى شقة فى حى العمرانية بمحافظة الجيزة قرب عملى؛ فلم يعد ثمة ما يربطنى بالبلدة إلا ذكريات جميلة عزيزة سممها ما حل بالدار من شتات؛ وكانت عباءة أبى تبرز كعنوان شامل لهذه الذكريات..

ذلك أنه من الغريب والطريف معاً، أو لعله ليس كذلك بالنسبة لعائلتنا ـ أن الموضوع الحقيقى الذى يمكن اعتباره مثال صدق حقيقى على أننا لا نزال إخوة رحم وأن ثمة علاقة تربط بيننا خلال تلك السنوات الأخيرة كان موضوع العباءة. جميع المراسلات التى تمت بيننا خلال السنوات المنصرمة فى عز محنة الدار ورفاهية المسافرين لم تخل رسالة منها ـ وإن على سبيل المزاح وتعطير الذكريات ـ من ذكر موضوع العباءة بشكل أو بآخر؛ بل ربما كانت العباءة موضوعاً رئيساً فى بعض الرسائل..

حدث أن تلقيت،مرة خطاباً من زوج أختى «تفيدة» المحاسب «جمال بغدادى» وهو ثرى مصرى تعرف عليها فى السعودية وتزوجها فى احتفال مهيب ودينى حيث عقد قرانه الشيخ «محمد متولى الشعراوى» شخصياً فى مسجد الحسين. فلما فتحت الخطاب لم يكن يدور بخلدى مطلقاً أن موضوع العباءة يصل إليه هو الآخر؛ ليصبح طرفاً فيه دون موجب.

المدهش أن لهجة الخطاب كانت جادة جداً، مضمخة بعطر المحاسب «جمال بغدادى» ورزانته وشدة أدبه وتهذيبه؛ حيث يهيب بى أن أتدخل فأشاركه فى محاولة للصلح بين أخى «عبد الرشيد» وأخى «عبد المطلب»؛ يقترح على موعداً لحدوث لقاء فى البلدة إذ أنه عائد إلى القاهرة فى الأسبوع القادم لعقد قران شقيقته الوحيدة على أحد زملائه، وليس لديه مانع من التحويد على البلد لنلتقى هناك معاً وننهى هذه المشكلة الخطيرة بأى شكل.. ذلك أنه تلقى خطاباً من أخى «عبد المطلب» يعتذر فيه عن حضور عقد القران هذا؛ فلما أرسل له زوج أختى يستفهم منه عن سر اعتذاره غير القبول أصلاً؛ رد عليه بأنه لن يحضر إذا كان أخوه «عبد الرشيد» سيحضر إذ أنهما لا يصح أن يجتمعا الآن فى لقاء واحد خوفاً من حدوث شجار بينهما قد لا تحمد عقباه؛ فانزعج زوج أختى فوق انزعاج، مضافاً إليه انزعاج أختى هى الأخرى؛ فأرسل برقية يستعلم فيها عما يكون ـ لاقدر الله ـ قد حدث بين الشقيقين العزيزين؛ فرد أخى «عبد المطلب» يطمئنه بأن المسألة خير ومفيش حاجة، كل ما فى الأمر أنه فصل بايخ فعله أخى «عبد الرشيد» فأثر فيه تأثيراً شديداً: إذ كان أخى «عبد الرشيد» قد عاد إلى

البلدة فى إجازة سنوية طويلة المدى قام خلالها بإجراءات جد خطيرة؛ إذ طلب اقتطاع نصيبه من الأرض ووضع يده عليه فى أهم وأخصب حوض فيها، المحاذى لشاطىء ترعة السلمونية مباشرة على مبعدة خمسة كيلو مترات من البلدة؛ فقام بتجريف المساحة كلها، صنع من طينها الخصيب طوباً أحرقه؛ ثم جيء بالمقاول والأنفار؛ ففى ظرف أيام قليلة ارتفعت سراية مهيبة تحوطها حديقة كثيفة بسور مبنى بالأسمنت تنام فوقه أفرع الأشجار؛ فرش السراية بالبسط والسجاجيد الإيرانية والستائر الملونة والأثاث المستورد كالذى نراه فى شقق الأفلام، وقد ألحق بجناح السراية حظيرة لسيارته التى لحقت به على مركب عبرت إلى نويبع ثم إلى شاطىء مصرى قريب فذهب ولاقاها وعاد بها كالعروس المجلوة تقف على سطح مقدمتها نجمة تمد إلى الشمس حبلاً يتلألأ طول الطريق؛ أدخلها الحظيرة فثبتها فوق طبلية من الخشب وألبسها ثوباً من الكتان السميك ثم أغلق عليها وعلى السراية بأقفال حديثة رقمية إلكترونية، وقفل عائداً إلى الكويت.. ليس هذا هو المحزن فى الأمر فهو حر يفعل ما يشاء طالما أنه يعرف مصلحته فيما يفعل لكن المؤسف المغيظ أنه منذ لحظة قدومه إلى دارنا استعار العباءة من أخى «عبد المطلب» ليطرحها على كتفيه طالما هو باق فى البلد؛ هل تغلو العباءة عليه؟ العباءة وصاحب العباءة تحت أمره؛ وهكذا طرحها على كتفيه طوال إجازته خاصة أنه فى جميع مشاوير لم يلبس غير اللبس البلدى؛ ويوم سفره كان أخى «عبد المطلب» هو الآخر على سفر إلى دسوق لقضاء مهمة تتعلق بإصلاح واحدة من سياراته الأجرة القديمة الخربة على الدوام تتكلف أضعاف ما تدره من دخل؛ فلما عاد

فى المساء علم أن أخى «عبد الرشيد» قد ربط حقائبه وركب إلى القاهرة ليبيت فى أحد فنادقها على مقربة من موعد الطائرة؛ حينما سأل زوجه: ألم يترك لك العباءة؟ قالت: لا؛ فانهال عليها ضرباً وتلطيشاً ولوماً: لماذا لم تقولى له اترك العباءة؟ ألا تعرفين أنها كانت عنده؟ ألم يأخذها منك أنت؟! والمسكينة تتذرع بأنها تعرف لكنها لم تجرؤ على مفاتحته فى أمر كهذا؛ كانت محرجة؛ فما كان من أخى «عبد المطلب» إلا أن سحب جلبابه الكشمير ومضى إلى الطريق الزراعى فى انتظار واحدة من سياراته توصله إلى دسوق ليركب من هناك إلى القاهرة ليصطاده على باب المطار؛ لن يشفى غليله إلا هذا فقد طار صوابه من سخف هذا الفصل البارد؛ أبدلاً من أن يشترى له هدية ثمينة من بلاد المال، يطمع فى العباءة يختلسها بهذا الشكل الخسيس البايخ؟ والله لو حكمت بأن يسافر وراءه إلى الكويت فسوف يفعل؛ ولقد حكمت بالفعل لكنه لم يفعل؛ إذ وصل إلى باب المطار بعد قيام الطائرة بعدة ساعات، فعزى نفسه بالفسحة فى شوارع القاهرة والصلاة فى مسجدى السيدة والحسين؛ وبالمرة زار السيدة «نفيسة» والسيدة «عائشة» والسيدة «فاطمة النبوية» والإمام «الشافعى»، تصدق وقرأ مئات الفواتح، ثم طالبهم جميعاً بأن يسامحوا أخاه «عبد الرشيد» فيما فعل، وأن يتشفعوا لأبيه فى دار الخلد؛ أشهدهم جميعاً على نفسه بأنه سوف يحج هذا العام بشرط أن يظهروا سرهم الباتع فى تسهيل السفر؛ ثم قفل عائداً إلى البلدة؛ لكن الشيطان الذى تمكن هو من خسفه بزيارته لأولياء الله الصالحين من آل البيت كان فى انتظاره على مدخل البلدة؛ فجأة أحس به يهدر فى صدره بالغضب يشكل فى ذهنه خطاباً «زى الزفت» يرسله إلى «عبد الرشيد»، وفى صدره قرار

بقطع العلاقة نهائياً ما لم يعتذر «عبد الرشيد» عن فعلته السمجة هذه فيبعث له بالعباءة على أى نحو كان. فى تلك الأثناء وصلته دعوة زوج أختى فأصر على رفض الحضور بأن هرب من البلدة كلها مدعياً أنه فى سفرة عمل ضرورية..

وكان أخى «عبد المطلب» قميناً بأن ينسى الموضوع مؤقتاً على الأقل لولا أنه تلقى رداً على خطابه «المزفت» من أخى «عبد الرشيد» يبلغه فيه أن خطابه قد وصله، وأنه بخير وفى صحة جيدة، ويبلغ سلامى إلى الأسرة كلها، والسلام ختام؛ ولا ذكر لموضوع العباءة على الإطلاق؛ فاشتعلت النيران فى صدر أخى «عبد المطلب»؛ بات يشكو لطوب الأرض نتانة أخى «عبد الرشيد» وفراغة عينه، وكيف أنه فيه الكثير من جبلة أخى «إبراهيم» وهبوط حرارته إلى حد يفقع المرارة ..

ربما كان هذا هو السر فى أن كل الرسائل التى تلقيتها خلال هذه الأزمة من أخى «توفيق» وأخى «رفعت» وأختى «شاهندة» وأخى «إبراهيم» كانت كلها تستفهم منى عن حقيقة ما جرى بخصوص العباءة، وما هى تفاصيل الحدث بالضبط لأن أخاهم «عبد المطلب» لم يبح لهم بأى تفاصيل بل إن بعضهم علم بالموضوع من ناس آخرين؛ فلما أرسلوا لأخيهم «عبد المطلب» يستوضحونه حقيقة الخصام الناشب بينه وبين صفيه القديم «عبد الرشيد» رد عليهم ردوداً مضغمة غاضبة حانقة تشى بأن الأمر أكبر مما يتصورون.. فأرسلوا لـ «عبد الرشيد» فرد عليهم فى برود وسخرية بأن عليهم أن يعرفوا ذلك من «عبد المطلب» أما هو فليس عنده أى تفاصيل فى هذا الأمر الذى من الواضح أنه يخص «عبد المطلب» وحده.. على أن الأمر قد بات خصاماً حقيقياً لا رجعة فيه؛ انقطعت المراسلات بين كل من أخى «عبد المطلب»

وأخي «عبد الرشيد» إلى أن حل موعد الإجازة السنوية وجاء «عبد الرشيد» ولكن على سرايته مباشرة؛ وفي هذه المرة كانت المفاجأة أدهى وأمر؛ إذ أن أخي «عبد الرشيد» كان قد تزوج من ورائنا من شابة فلبينية نحيفة رشيقة جميلة كضوء اللهب الأحمر حين يضرب إلى الإصفرار فيعكس في عينيها لون الإخضرار؛ تعمل طبيبة جراحة قلب في مستشفى خصوصي شبه ملكي في مدينة الكويت. كانت ترتدي سروالاً محزقاً ينحت تفاصيل جسدها تتماوج فوقها ألوان القطيفة السخية المنسابة من شال منطرح على كتفيها تتصل ألوانه المخملية بلون السروال ولون بشرتها..

كانت مهرجاناً من الفرجة وهي تنزل من سيارة الأجرة القاهرية التي أقلتها من باب المطار إلى باب البيت. في المساء غيرت ثيابها على قليل من الحشمة؛ وتأبطت ذراع أخي «عبد الرشيد» - الذي بدا آنذاك كملك متوج تفوح منه العطور الثمينة وروائح الأقمشة الجديدة - فمضيا إلى دارنا لزيارة إخوته وأهله ليعرفهم بعروسه. اضطر أخي «عبد المطلب» - تحت ضغط شديد وحاسم من أخي «عبد النور» - أن يستقبلهما بترحاب شديد.. ذبح لهما عنزة صغيرة وديكاً رومياً وحفنة زغاليل.

تناولوا العشاء في احتفال كبير زاطت فيه صبيان الدار والجيران.

وزعت العروس كثيراً من الهدايا القيمة على كل أهل الدار كل بما يليق بوضعه ومركزه؛ ووزع أخي «عبد الرشيد» رزمة من الجنيهات الجديدة على كافة الصبيان والأطفال والمعوزين الذين جاءوا للسلام عليه يذكرونه بأنفسهم في جهد كبير. وفي آخر الليل سحب عروسه

ومضى إلى سرايته فى موكب حافل يتقدمه كل من أخى «عبد المطلب» وأخى «عبد النور»، حتى باب السراية؛ وعندها امتنعوا عن الدخول متذرعين بأن الوقت أزف؛ صبحوه على خير وقفلوا عائدين..

مكث أخى «عبد الرشيد فى البلدة عشرين يوماً وهو فى كل ليلتين يصطحب عروسه للسهر فى دارنا فيرقع العشوة الدسمة ويمضى فلا يبدو عليه أنه سيفتح موضوع العباءة؛ حتى وهو يودعهم أمام سيارة الأجرة التى حضرت خصيصاً - باتفاق مسبق - لتنقله إلى المطار، لم يذكر موضع العباءة. كانت جهود أخى «عبد النور» قد وفقَتْ فى كبح أخى «عبد المطلب» وإرغامه على قفل فمه تماماً إكراماً لهذه الضيفة المبجلة التى ترانا لأول مرة؛ لكن أخى «عبد المطلب قال الكثير بوجهه المتغضن وبوزه الملوى وسكوته الكظيم..

بلغ به التأثر مداه فنسى العباءة وأخاه معاً؛ بات يمتنع عن تذكر اسمه. زاره زوج أختى «تفيدة» وخطيب أختى «شاهندة» حاول الجميع إقناعه بالصفح عن صفيه القديم فلم يفلحوا؛ بل أفلح هو فى إقناعهم جميعاً بسلامة موقفه؛ فباتوا يستغلطون أخى «عبد الرشيد» فى هذا التصرف السخيف الغامض.

* * *

إنزوى أخى عبدا لمطلب يجتر أحزانه فلم ينتبه إلى المحنة الأكبر والأهم، تلك التى يعانيها أخوه عبدالنور تحت سمعه وبصره. كان تفتت العائلة يفت فى عضده فيخلفه مهزولاً منكسراً كشيخ طاعن فى السن. ثم إن المحنة عظمت بتفتيت الأرض التى تلمهم وتحمى ظهورهم وكبرياءهم. ذلك أن إخوتى اقتدوا بأخيهم «عبد الرشيد»؛ فطلب كل منهم وضع يده على نصيبه من الأرض ليبنى عليه سراية محندقة؛ حتى «نفيدة» و«شاهندة» طالبت كل منهما بنصيبها وحصلت عليه بالفعل. فإن هى إلا شهور قليلة حتى أحيطت سراية أخى «عبد الرشيد» بأسلاك شائكة تحدد مساحات جاهزة للتجريف لم يعطلها سوى الارتفاع المفاجئ فى أسعار مواد البناء كما تذرع الإخوة. وحقيقة الأمر أن لوثة الثراء لحست عقولهم أصابتهم بسعار، فتعمدوا ترك الأرض جاهزة للبناء إلى أن يزداد ارتفاع ثمنها فلعلهم يبيعون أجزاءً منها ينفقون أثمانها على إقامة البناء بدلاً من الإنفاق من لحم الحى. ثم اتضح لنا بعد قليل من الأشهر أنهم جميعاً - فيما عدا «عبد الرشيد»

وبتشجيع من المحاسب جمال بغدادى زوج أختى «تفيدة» - قد أودعوا مدخراتهم لدى الريان نظير عمولة قدرها خمسة وثلاثين فى المائة - عرفنا ذلك بعد القبض على الريان وارتفاع الصراخ وحدة البكاء فى الرسائل المتبادلة بيننا؛ لكن أخى عبدالمطلب ظل يعتقد بثقة مذهلة أنهم يدعون ذلك حتى لا نحسدهم أو نفكر فى السلف منهم مع أننا والحمد لله لسنا محتاجين لفلوسهم؛ إلا أن هذا - يقول - داء يصيب كل من يغتنى بعد فقر ويثرى بعد احتياج.

ضمن الارتفاع الجنونى للأسعار - كانت أسعار أرض البناء؛ مما أغرى كل من أخى توفيق وأخى رفعت وأختى تفيده وأختى شاهنده وحتى أخى «إبراهيم» هو الآخر بالبيع لناس غرباء وذوى لكنة أعجمية وسحن ممسوحة الملامح جاء بهم أحد المقاولين الذين بدأوا يعرفون الطريق إلى بلدتنا للبناء أو للبيع والشراء أو تسفير الرجال والنساء إلى البلاد العربية؛ وقيل أنهم سيقيمون فوق هذه الأرض مصنعاً للبلاستيك حجة إخوتى فى البيع أنهم اعتادوا عيش المدن ومن ثم لن يكتب لهم عيش فى القرية بعد ذلك؛ وهذه الآلاف العائدة من ثمن الأرض تكفى بالكاد شراء شقة سكنية مناسبة فى المدينة لكل منهم. إخوتى - شأن بنى جلدتهم جميعاً - يفضلون كوخاً فى المدينة على قصر فى القرية؛ فالسحر الذى يربطهم بالمدينة لايقاوم؛ ربما كانوا مدفوعين إلى ذلك بحلم الانتقام من المدينة التى سبق أن سحقتهم واستلبت خيرهم وهزأت بكبريائهم.

صدمة «الريان» - من أسف - لم تحرك فيهم ساكناً؛ كأن هذه الأموال ليست شقاء اغترابهم وتقطيع أوصالهم؛ أو لعلهم اعتبروا ضياعها نوعاً من الجهاد فى سبيل الله.

الوحيد الذى حزن لكل ضحايا الريان وانشقت سويداء قلبه ألماً وحسرة عليهم كان أخي عبدالنور؛ الذى أصابه الذهول فانسخط، فقد القدرة حتى على الهذيان، استوعبه ذهول جامد صلب. وحينما أبلغ أخي عبدالمطلب فى فراشه ذات قيلولة أن أخاه عبدالنور لم يصح من النوم منذ ثمانية وأربعين ساعة فى المندرة ذهب إليه وهزه برفق عدة مرات فتأكد أنه مات، وفى عينه نظرة الذهول الجاحظة، لكن على شفتيه كرمشات بسمة اشمئزاز قانطة.

حضرت إلى البلدة بعد دفنه بيومين؛ وحضر أخي عبدالرشيد - بموجب برقية - بعد خمسة أيام؛ وفى هذه المرة جاء مرتدياً العباءة فوق البذلة السوداء. لم تكن معه زوجه الطبيبة الفلبينية لأنها - فيما قال بدون أن يسأله أحد - سافرت إلى فرنسا لمناقشة رسالتها للحصول على درجة الدكتوراه فى جراحة القلب، وإنه سوف يلحق بها فى الحال ليمكث بجوارها فى باريس إذ أنه خلال الشهر القادم سيناقش هو الآخر رسالة للدكتوراه فى الاقتصاد السياسى..

ساعتها كنا خارجين من حجرة جدتى الكامنة فى منعطف بجوار الزريبة كسرداب يلتف حولها ليوصل خلفها إلى ما يشبه أن يكون داراً أخرى داخلية كانت منفصلة ذات يوم قبل أن ينفتح عليها هذا السرداب؛ كانت بالفعل هكذا قبل أن يشتريها أبى من صاحبها عبدالمجيد المنفى الذى ارتحل للعيش فى برارى سيدى سالم بجوار أهله؛ وهى الآن مرشحة لأن يشتريها ولد صايع عاد من العراق منذ شهور ليساوم فى ثمنها باعتبارها زائدة عن حاجتنا.

كنا قد عزينا جدتى وذرفنا معها الكثير من الدموع الحارقة؛ ثم خرجنا وتركناها ذاهلة لا تردد سوى كلمة واحدة تطلقها بين زفرة وأخرى: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وكان يساورنا شك كبير فى أنها تعرفت علينا لأنها لم تنطق باسم واحد منا طوال الجلسة بل عاملتنا باعتبارنا غرباء تماماً إذ كانت تردد بين حين وحين: أهلاً وسهلاً سعيكم مشكور!!.

صرنا نتمشى فى صحن الدار نستطلع ماطرأ على ذكريات طفولتنا من تغيير أو تحولات، وما بات يهددها من اقتحامات مجهولة. وكنت أشعر بأنى مهان حتى النخاع كأنى مضروب على أم رأسى بصرمة قديمة؛ وكان أخى عبدالرشيد يعلق على شفتيه ابتسامة شاحبة لم أجد لها تفسيراً سوى أنها تنطق بمعنى وحيد: ضربوا الأعور على عينه قال: خسرانه خسرانه! وكان يقول إنه يشعر كأن أشياءً كثيرة هاهنا تغيرت؛ وكنت أرى أن كل شىء باق على ما كان عليه منذ طفولتنا لكن التغيير ربما كان فينا نحن..

أمام الزريبة ارتكنا على «الحاصل»؛ هو بناء من الطين طويل شبيه ببرج الحمام أعد لتخزين الغلال فكنا نتسلقه عابثين لنصل إلى سطح الزريبه كى نطير الطيارة الورقية التى كان أخى عبدالرشيد بارعاً فى صنعها من ورق تجليد الكراريس؛ أو نسرق كيزان الذرة المفرودة تحت الشمس لتحميصها كى يسهل طحنها؛ كنا نشترى بهذه الكيزان حلوى من نساء جالسات يبعنها على السكك الزراعية.

فجأة قال أخى «عبد الرشيد» بصوت متهدج إنه أصبح كارهاً للسفر من جديد وفى نفس الوقت كارهاً للبقاء فى مصر كلها؛ وأنه ندم على

بناء هذا البيت ندماً شديداً؛ وأنه قد بناه أثناء ما كان واقعاً في غرام العباءة المصرية وفي كل شئ يذكره بمصر، أما الآن فلم يعد يطيق أى شئ لما رأى الدهشة المذعورة في عيني قال وهو يضغط بأصبعيه على سمانة ذراعي في قرصة موجعة إنه الآن قد بات مقتنعاً بأن كل شئ في مصر بالذات لم يعد آمناً في ظل هذا الصراع الدموى الرهيب:

«يقولون إن مصر لا تنفع فيها حرب أهليه كلبنان؟! الواقع أن الحرب الأهلية في مصر لا مثيل لها في التاريخ! حرب بلا بارود ولا أسلحة تقليدية!! كله ضرب تحت الحزام! هذه الفوضى الاقتصادية وهذه الانهيارات الخلقية هي الأسلحة التي ستنتشر بصورة مفزعة! لا تأمل في أى ثورة أو أى إصلاح لأن حجم المستفيدين من الفساد رهيب! ومن يقع عليهم الظلم قد فقدوا الإحساس حتى بالظلم! هم قلة مضطهدة مستعبدة أصبحوا على قناعة بأن هذا هو حظهم في الحياة كما رسمه الله لهم وليس عليهم إلا أن يتقبلوه بكل ترحاب!! أبناؤهم جنود في يد العصابات الدولية الكبرى تستخدمهم باسم الدين تارة وباسم الحرية تارة أخرى! السجن والقتل والتعذيب والتشريد لهم أما الهناء كله فلمستخدميهم! من ذقنه إفتل له حبل مشنقته هكذا تفعل العصابات الدولية تنفق على هؤلاء الأغرار عشر معشار ما تسرقه من المنطقة!! وطالما أن المال قد أصبح هدفاً ورسالة حيث لا هدف ولا رسالة في أى بلد من بلدان العالم العربي اليوم فإن كل بناء ذى أبهة مآله في النهاية لصاحب اليد الطولى! غداً يؤجر الهرم الأكبر لأحد البلطجية يفتحه مشروع بوتيك أو مقهى!! الثراء بدوره لابد له من ثراء يحميه! لابد أن يرتفع منسوب الدخل باستمرار وإلا فأنت في النازل

وكل ممتلكاتك المادية والمعنوية آيلة لمن يقدر على حمايتها!! الحماية كلها في يد أصحاب التكنولوجيا والعقول المهيمنة المسيطرة! أى أن الاستعمار لم يرحل مطلقاً عن البلاد بل استبدل جنوده بجنود من أهل المستعمرات أنفسهم! العجيب أنهم ربما كانوا أكثر ولاءً له من بنى جلدته!» .

ثم قال إنه متشائم، ومنقبض، إذ أنه كمحترف سياسة من صغره يدرك الآن بشكل غامض مبهم أن جو الكويت ملبد بالغيوم بسبب الخلافات بين الأمير وصدام حسين، وإنه بحكم معرفته الدقيقة لشخصية صدام يشعر أن بعض القلاقل سوف تحدث؛ لقد استشف ذلك من حركة رءوس الأموال في البنك الذى يعمل به، خاصة بعد أزمة سوق المناخ؛ ثم السحب على المكشوف بصورة مذهلة، جميع التجار والبيت الحاكم كانوا يسحبون يومياً مئات البلايين يسرحون بها على بنوك سويسرا يقدمون التنازلات الكبيرة لتقبلها البنوك التى ازدحمت فجأة بفائض لا تحمد عقباه. قال إن القحط قادم إلى الكويت وإلى جميع العرب لا محالة؛ لكن الله قد ألهمه بالزواج من هذه الفلبينية النيرة التى فتحت عيونه على كل شئ. كانت حريصة على تحويل مدخراتها أولاً بأول إلى بنوك سويسرا المحمية بالسرية والأمان، فاقتدى بها وفعل مثلها فليس يملك فى الكويت الآن إلا قليلاً من السيولة يحرك بها أمور حياته. ثم صرح بأنه يتعشم أن يحصل على تقديرات عالية فى درجات الرسالة لعلها تفتح له السبيل إلى التدريس فى أى جامعة فرنسية أو انجليزية؛ ليعوض مشاعره ما فقدته من رقة فى هجير الصحراء، وعقله ما فاته من ثقافة..

مررنا على قاعة أخى عبدالمطلب قادمين من أعماق الزريبة التى لاحظنا أنها قد صفصفت على بقرة وعجل رضيع وحمار مكسور الظهر. كانت العباءة مطوية على ذراع أخى عبدالرشيد؛ فلما صرنا على باب قاعة أخى عبدالمطلب تنحنح رغم خلو القاعة من أى بشر، ثم دخل، فعلق العباءة على مشجب كالشجرة ما بين السرير والدولاب؛ وخرج قائلاً:

- «كما أخذتها وضعتها فى نفس مكانها فاللهم فاشهد!»

ولحظتها كانت زوج أخى عبدالمطلب قادمة تحمل على رأسها قفة مليئة بالردم لتتريب الزريبة، فسمعت ما قال فدارت ابتسامتها فى كم جلبابها. وعلى باب المندرة كان أخى عبدالمطلب واقفاً يتابعنا كاتماً ابتسامة متمردة لكنها ممرورة. مد لنا يداً خشنة تخلو من كل حرارة؛ فسلمنا عليه وتبعناه إلى الداخل وقد اضمحلت تلك البهجة القديمة التى كانت تعترينا بمجرد أن يرى أحدنا الآخر. جلسنا نحتسى الشاى الثقيل الأسود فى كوبات من البللور المستورد فبدت نشازاً لا مزاج فيها.

رغم الهم الثقيل كانت الفرحة الخفية بادية على أخى عبدالمطلب بعودة العباءة إليه. ما كدت استشعر هذا حتى شوح بذراعه كأنه يقرأ أفكارى:

- الآن قد استرحت! ليس لأن العباءة عادت إلى مكانها! لا! فالعباءة فى حد ذاتها لا قيمة لها بين الأشقاء! وهى الآن لم يصبح لها أى قيمة لأن أحداً لم يعد يحترمها! لم يعد يلبسها كبار القوم لأن الأقوام لم يعد لهم كبراء! لم يعد هناك أقوام أصلاً!! إنما راحتى أن الزعل قد انمحى

الآن من صدرى وحل الصفاء فالحمد لله! لم يعد فى العمر بقية ننفقها فى الزعل!».

وحين أمعنت النظر فى وجه أخى عبدالمطلب خيل لى أننى لم أره منذ دهور طويلة؛ وأن شيئاً جوهرياً فيه قد تغير وانكسر؛ تكرمشت خدوده، ذبلت جفونه، إنطفأ البريق فى عينيه، برزت عروق رقبته فبدت تفاحة آدم تحت ذقنه كنتوء بارز فى طرف عصا؛ الثياب كانت فضفاضة عليه بصورة مقلقة..

قرأ أخى عبدالرشيد أفكارى؛ قال لأخى عبدالمطلب:

- يلزمك تحليل دم ياعبدالمطلب! هل حللت أو كشفت عند الطبيب؟ منظرك لا يعجبنى؟ لو لم أكن مرتبطاً بموعد الطائرة إلى باريس لعرضتك على طبيب كبير فى القاهرة! لكن لا بأس أن أفعل ذلك بشرط أن تقوم الآن لنبيت فى القاهرة!..

شوح أخى عبدالمطلب بذراعه فى فروغ بال، ولم يعلق؛ لكنه قال بعد لحظة إطراق طويلة:

- «ليس عندى مرض السكر كما يظهر على! فكل ما فى الأمر أنى قلق! أصبحت وحدانياً!! أولادى وأولاد المرحوم سافروا إلى العراق منذ ثلاث سنوات فلم يرجعوا! كانوا يرسلون لنا أصواتهم على شرائط! ثلاث من أولادى: حشله ومعزوز وخليل! واثنان من أولاد المرحوم! عمر وعبدالباسط! هم الخمسة حصلوا على دبلوم الصنايع قسم زخرفة ولحقوا ببعضهم واحداً وراء الآخر لكنهم ليسوا فى بلد واحدة فاثنان منهم فى بغداد وواحد فى البصرة واثنان فى تكريت حسب شغل مقاول المبانى

الذى يعملون معه! قلبى يأكلنى على الأولاد يا عبدالرشيد! لم يعرفوا حتى الآن أن عمهم وأباهم قد توفى إلى رحمة الله! انقطع الاتصال بيننا وبينهم منذ أكثر من سبعة أشهر! والصناديق السوداء تجئ من هناك بالجثث كل يوم!! سمعت أن العراق يلخبط أمخاخ العيال بالفلوس حتى يضمهم للجيش إنها الكارثة إذن! كيف توافق حكومتنا الرشيدة على هذا الذى يحدث لأولادنا فى العراق؟!».

وتقرفص شارداً: فتمثلت فيه صورة أبى فى أواخر أيامه صورة طبق الأصل منه حتى فى تنهداته المفاجئة».

خرجنا إلى شوارع البلدة فاتجهنا إلى المقابر؛ قرأنا الفاتحة على روح المرحوم وبكينا بصدق وحرارة؛ ثم عدنا إلى الدار لنأخذ حقائبنا. لم يكن فى الدار ولد واحد يوصلنا بالركوبة إلى محطة القطار، ولا حتى من أبناء الجيران فكل الولدان إما فى العراق أو فى الخليج أو فى ليبيا. أخيراً رضينا أن تصحبنا بالركوبة صبية صغيرة من الدار على شئ من الوعى. أشفقنا على أخى عبدالمطلب وهو يلف يسأل الجيران عن ركوبة تضاف إلى حمارنا الهزيل المكسور؛ وكان يعتذر قائلاً إن الحمير قد بدأت تشح فى البلد منذ بدأت السيارات تنتشر؛ ويقول إننا لو تمهلنا نصف ساعة فلربما تجئ إحدى السيارات توصلنا؛ لكن أخى عبدالرشيد لا يقبل ركوب هذه السيارات أبدا ويفضل المشى عليها لأنها فى نظره كارثة تمشى على عجل، إذ يتكوم فى السيارة الواحدة وفوقها عشرات من الجثث ويقودها فى العادة صبى أهوج غشيم لا يقرأ ولا يكتب ولا يحمل أى رخصة قيادة وأحياناً لا رخصة للسيارة؛ وليس من المعقول

أن المستشار القانوني للبنك المركزي الكويتي، صاحب السيارة المرسيدس والسراية الفخمة، ينحشر كالجوال في سيارة مهينة كهذه مهددة بالقفز إلى ترعة أو مصافحة قطار في مزلقان.

في عربة الدرجة الأولى من القطار الذاهب إلى القاهرة انجعص أخي عبدالرشيد في الكرسي المواجه لي؛ واندمج في قراءة الصحف بتركيز وعمق شديدين، متمعنا في صفحات سوق المال والتجارة والإعلانات المبوبة، في حين انزويت مع راديو ترانزستور بسماعة شخصية رحت أحاول ضبطه على محطة مونت كارلو بحثاً عن الأخبار. كانت ملابس عبدالرشيد فخمة ثمينة إلى حد شعرت معه بأنني عار من كل ثياب، فمجموع ما فوق جسدي قد لا يساوي مائة جنيه أما هو فعلى كتفيه وفي قدميه ويديه مالا يقل عن عشرة آلاف دولار. كان يبدو كشخص أجنبي تعرفت عليه اليوم فحسب وسوف استضيفه - على مضض شديد - للمبيت في شقتي المتواضعة لحين موعد الطائرة المقلعة إلى باريس صباحاً.

لم أجد أي حوار أتبادله معه. إلا أنه نحى الصحف فجأة، ارتدى النظارة ماركة «ريبال» الخضراء القاتمة ذات الإطار الذهبي؛ أشعل سيجارة روثمان غرزها في المبسم الذهبي؛ فأسرعت بإشعال واحدة لنفسي من علبتي السوبر كليوباترا؛ وكانت فيما أظن أول مرة أدخن فيها أمامه؛ ربما لهذا عبرت وجهه موجة سريعة من الدهشة سرعان ما اختفت في قتامة المنظار. فجأة قال:

- على فكرة! مخاوف أخيك عبدالمطلب في محلها! هناك حشود عراقية ضخمة على الحدود الكويتية العراقية أظنكم سمعتم أخبارها!

هناك أشياء غامضة تحدث والدنيا كلها مذعورة إلا الكويتيين أنفسهم والعالم العربى كله!! لا يشعرون بأى خطر يهدد حياتهم فالمال هو الوطن الحقيقى بالنسبة لهم يرحلونه حسب اتجاه الريح! الكويتيون الآن فى المصايف الأوربية والمصرية! ربنا يستر! أنا أتابع المشكلة من بدايتها فى جميع الصحف والإذاعات العالمية فإذا الجميع يعرفون كل شئ عنا فيما نحن لا نعرف أى شئ بالمرة!.

وأشعل سيجارة أخرى؛ وفى هذه المرة استدرك فقدم لى علبته الجلدية بعد أن كاد يضعها فى جيبه؛ فاعتذرت بأننى لا أحب تغيير نوع السجائر؛ فوضع العلبة بجواره، شعرت بالإهانة إذ بدالى كأنه اطمأن على سلامة علبته بعد رفضى لنوعها. ربما لم يكن قد فكر فى شئ من هذا ولكن هذا ما بدا لى؛ فالجالس أمامى الآن شخص لست أعرفه على الإطلاق، لم يكن بيننا طفولة مشتركة فى يوم من الأيام. ثم فاجأنى كطرف ثالث يشترك فى الجدل بيننا؛ قال بصوت متهدج:

- تجربة الشغل فى الخليج مريرة مريرة!! وغريبة! إما أن تحولك إلى عبقرى فى التعايش واللعب على الحبال! أو إلى حمار حصاوى! أنا الآن بين بين! لعلنى عبقرى حمار أو حمار عبقرى!! مهما كان حجم معلوماتك ومواهبك لابد أن تظهر حموريتك التامة لكى يأمنوا جانبك فتعيش فى رغد آمن عيش الحمار المعلوف!!..

وجدتنى أقول له:

- ولكن متى تعود لتستقر فى بلدتك؟! يكفيك ما حصلته من أموال وما أضعته من عمر!.

خلع النظارة السوداء بعصبية فلمعت فى عينيه نظرة من يدرأ عن نفسه الحسد كأنها تقول لى: أعوذ بالله من عينيك الحسودتين؛ واندفع فى الحال دون مناسبة يشكو من «الكوارث» التى تطارده؛ فلقد أنفق لا أدرى كم ألف دولار على زوجه فى محنة الحمل مع ضيق الرحم، وأنفق لا أدرى كم ألف دولار على عملية جراحية أجراها فى الصيف الماضى لاستئصال كذا وكيت من معدته من رئته من مؤخرته من فرج أمه: وتحمل غرامة كذا ألف دولار نتيجة خطأ غير مقصود فى حسبة معينة: ناهيك عن الفلوس نفسها معدومة البركة كالعصافير الطائرة؛ واختتم قائمة الكوارث التى تطارده بمرض استقراطى أجنبى الاسم لم أسمع به طول حياتى لا يجئ إلا لمن يعاشر الصحراء فترة طويلة من غير أهلها وهذا المرض اللعين يكلفه حقنة كل يوم ثمنها مائة دولار؛ ثم تنهد قائلاً:

- مع ذلك لن أجدد العقد بعد انتهاء هذه المدة التى لم يبق منها سوى شهور قليلة!! لقد زهقت من الشغل فى الغربة ومن قرف الناس! لكننى بالطبع لن أعود نهائياً كما قلت لك! سأبحث عن مكان محترم استرد فيه كرامتى إنسانيتى المهدرة!.

لم أعن بالرد أو التعليق. دماغى كان مثقلاً بهم أولاد أخى «عبد المطلب» وأخى «عبد النور». وجدتنى أسأله بحماسة مفاجئة:

- هل حقيقة أن الفلسطنيين يكرهون المصريين ويدبرون لهم المكائد والدسائس لدى أصحاب الأعمال ويتخذون منهم موقفاً عدائياً؟!.

انتقلت إليه الحماسة؛ إحمر وجهه بغضب مكتوم، بل إن قبضته تكورت فى الحال فوق حشية المقعد كأنه يستعد لتسديد لكمة قوية إلى عدو مباغت، ثم أردف:

ـ أتذكر المثل الذى كانت جدتك تردده باستمرار: يا سايبِ بلدك حزينه حتلاقى الفرح عند مين؟! إن العرب جميعاً وليس الفلسطينيين وحدهم يعاملون المصريين أسوأ وأحقر معاملة لأن المصريين بكل صراحة أرادوا لأنفسهم ذلك!! فى نظر العرب أن هذه هى المعاملة التى يستحقها المصريون لأن العرب يعرفون أن المصريين خرجوا من ديارهم مطرودين مستذلين مهانيين!! العرب ضعفاء أمام الخواجة طول عمرهم بحكم شعورهم بأنه الأعلى وهم الأدنى على طول الزمن! هو فى نظرهم خبير محترم حتى ولو كان خادماً أو بائعاً فى محل!! أما المصرى فإنه فى نظرهم مجرد خادم أجير حتى لو كان خبيراً فى الذرة!! المصرى والفلسطينى كلاهما يعرض بضاعة واحدة: نفس الشغل! كلاهما محتاج للشغل حاجة ماسة وضرورية ضرورة الحياة! غير أن المصرى يقدم خدمة إضافية ليس يقدر عليها كل فلسطينى وإن أتقنها بعضهم بصورة أرقى واكرم! تلك هى أن المصرى فضلاً عن إتقانه للعمل لديه قدرة على احتمال الذل والهوان وقبول المساومة والحد الأدنى من الأجر نظراً لاعتياده الذل والهوان فى بلده! من هنا فحسب يغتاظ الفلسطينى من المصرى ويحقد عليه!! من حسن حظهم وسوء بخت المصريين أن أقامت حكومة السادات صلحاً منفرداً مع إسرائيل بعد أن يئس من شهامة العرب وتأكد من خذلانهم وميلهم إلى رغد العيش على حساب الدم المصرى المراق على أرض لا ينتفع من

خيرها أبناؤها التعساء!! أمسك الفلسطينيون والعرب هذه الذريعة لإساءة معاملة المصريين!! وهناك سبب آخر وأهم! أعنى به عقدة التخلف المزمنة التى أدت فى عصور كثيرة إلى نوع من تحالف البدو بجميع مللهم فى مواجهة الحضارة المصرية!! من سوء الحظ أن الأجيال الحالية هى التى تدفع الثمن!! هذا عصر الانحطاط فى كل شئ! الجميع فى النهاية أنفار بدرجة أو بأخرى! فحينما يتملك اللصوص والقراصنة مصادر الرزق والثروة فى بلد ما يصبح من الجنون أن ترفع أى دعوى ثورية! لأن القوة الأجنبية الحامية لمصالحها فى المنطقة سوف تقضى عليك لا محالة تستأصل شأفتك!!».

فى سيارة الأجرة ظللنا صامتين طوال الطريق إلى حى العمرانية خاصة أن أخى عبدالرشيد كان جالساً بجوار السائق كإشارة مكشوفة لطمأنتى على أنه سينوب عنى فى محاسبة السائق؛ فلما نزلنا دفع له ثلاث جنيهات؛ ومضى خلفى يتأفف من قذارة الشارع وسوء مستوى الحى. وجدنا مصعد العمارة عطلانا وعلينا أن نصعد بالحقائب ستة أدوار، على درجات سلم متآكلة الحواف كالفخاخ المنصوبة وسط أرتال من صفائح القمامة مندلقة على جميع الدرجات تحتدم على أرضها معارك حربية طاحنة بين فصائل من القطط لا حصر لها تنط فى وجوهنا تنزلق بين أقدامنا. ما أن وصلنا آخر بسطة حتى كان قد نكد على عيشتى وكرهنى فى كل شئ، وصفنا جميعاً ـ نحن سكان هذه العمارة الذين دفعنا فيها خلوات باهظة تبنى مدينة بأكملها ـ بأننا حيوانات تقبل الضيْم بل كلاب تسكرها روائح النتن والرمم؛ وقال إن هذا المنظر وحده كفيل بخلق أجيال من المستذلين لا فرق عندهم بين

حاكم وطنى وحاكم محتل، بل إنهم لابد أن يسلموا مقاليد أمورهم لأول قادم يأتى عليهم. ضقت به! لعنته فى سرى وبصقت فى وجهه وتمنيت زوالنا جميعاً من الوجود. مع ذلك اضطررت فى الفجر إلى توصيله حتى باب المطار. وفيما هو يتأهب للدخول فى الممر دسّ فى جيبى شيئاً وغمغم بكلمات مضغمة فهمت منها كلمة التاكسى الذى يجب أن يعود بى إلى بيتى؛ ثم هرول حتى اختفى. فلما استدرت عائداً دسست يدى فى جيبى فوجدت خمس ورقات من فئة العشرين جنيهاً - اشتعلت النار فى بدنى كله؛ فكرت فى تمزيقها، حرقها، اقتحام الطائرة عليه لأرمى بها فى وجهه أمام الجميع أرد عليه الإهانة بعشر أمثالها؛ لكننى مع ذلك مضيت مهيضاً أسأل عن رقم الأتوبيس الموصل إلى بر الجيزة.

كنت متكدراً بصورة لم أعهد من قبل، منقبض القلب أريد أن أبكى.. ألطم خدى.. أشق الهدوم .. أصرخ كالمجنون. نمت نوماً متقطعاً مليئاً بالكوابيس.

فى صباح اليوم التالى دهمنا الخبر الصاعق: «صدام حسين» يحتل الكويت.. ثم توالت الأخبار السوداء تصنع ليلات كئيبات..

لاأدرى كم ليلة مضت، لكننى فى ظل هذا الكدر الأعظم تلقيت برقية عاجلة من البلد.. إحضر حالاً أخوك «عبد المطلب» انتقل إلى رحمة الله.

قالت أمى إنه رقد فى الحال مكسوراً عند سماعه الخبر؛ هى الرقدة التى لم يقم منها، ثم راحت تهذى:

ـ ألا تعرف يا ولدى أحداً فى مصر يخدمنا فى الاطمئنان على الأولاد؟ هل قامت الحرب بيننا وبين العرب؟ هل سيضرب الجيش المصرى أولادنا إذا لقيهم فى جيش العرب؟! إعمل معروفاً يا ولدى ساعدنا!!..

لكننى بكل أسف لم أعرف كيف أساعد. كان الزمن يبدو وكأنه قد وصل إلى نهاية التاريخ، فتوقف جامداً فى انتظار قيام الساعة واندلاع السعير..

فى عز اندلاع السعير؛ والطائرات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والسعودية تقذف على بغداد حممها؛ جاءتنى البرقية الثانية: «أمك تعيش أنت».

سافرت، علمت أن أولاد الحلال تكفلوا بدفنها؛ فدائماً أبداً هناك أولاد حلال يظهرون وقت المحن مهما خلت البلاد من الرجال.. عدت إلى القاهرة فى حال يرثى لها؛ خاصة أن جميع إخوتى فى البلدان العربية يحتجزهم السعير فيذهلهم عن أنفسهم..

ظللت مضطرب النفس قلقاً فى بحور من الكآبة إلى أن توقف السعير.

وكانت ذكرى الأربعين قد حلت بالنسبة لأمى؛ فرأيت فى السفر إلى البلدة مهرباً من شبح الكآبة، وفى قراءة القرآن على المقابر متنفساً للراحة..

كان باب دارنا مفتوحاً على مصراعيه. دخلت؛ لا أحد فى المندرة غير صمت رطيب ثقيل الوطء يصدك عن الدخول. مع ذلك توغلت فى الداخل؛ حوش الدار فارغ ساكن إلا من قوقأة بعض الدجاج. ناديت، لا رد؛ بعض الحجرات مفتوحة الأبواب؛ نظرت فيها؛ لا أحد؛ أين ذهب أهل الدار؟

ربما ذهبوا إلى المقابر؟ لقد مررت عليها فى طريقى فلم ألتق أحداً، اقتحمت دويرة الفرن؛ كانت جدتى العجوز البالغة من العمر نحو مائة عام قد تكومت بجوار الفرن رأسها على صدرها يتصاعد منها شخير قوى كصوت الموتوسيكل المتقطع؛ حولها قطيع من الدجاج والبط ينقر الأرض وينظر إلى الفراغ فى سأم. خطوت نحو جدتى فهاج الدجاج فى صخب شديد.

رفعت جدتى رأسها، استأنفت فى الحال تحريك حبات المسبحة بين أصبعيها المرتعشين، حملقت فىّ مندهشة مذعورة؛ لم تعرفنى؛ ربما ظنت أنها فى حلم؛ أغلقت عينيها؛ نكست رأسها، سرعان ما ارتفع شخيرها..

وقفت أحملق فيها واضعاً يدى فى جيبى سروالى. استدرت، خطوت نحو الزريبة، مررت بقاعة أخى «عبد المطلب»؛ كانت مفتوحة؛ ثمة طفل رضيع منكفىء على وجهه فوق المصطبة مستغرقاً فى نوم عميق لا فرق بينه وبين الموت؛ قد أفرغت مؤخرته العارية كومة من البراز، راح الكلب العجوز يلغط فيه يلحس فى مؤخرة الطفل وقد راح ذيله يتراقص فى نشاط ونشوة. اندفعت نحوه، طاردته، ضربته ببوز الحذاء فى غيظ فعوى مذعوراً وانطلق يجرى. حاولت أن أعدل الطفل، بمجرد أن لمسته تململ فى ضيق وانبعث منه بكاء سأمان بصوت مبحوح كظيم مقهور، فعرفت أنه ظل يبكى وحده حتى انهد من التعب راقداً هكذا. شعرت بالقرف؛ تسمرت فى مكانى لا أدرى ماذا أفعل؛ راحت عينى تمسح جو الحجرة التى خيمت عليها الكآبة؛ اصطدمت عينى

بالعباءة؛ كانت متدلية من المشجب كشبح هزيل، كظل لكبير قوم تبخّر واضمحل؛ سرعان ما انقسم شبحها إلى عديد من الأشباح المتكررة المتجاور؛ وكانت عيناى قد امتلأتا بالدموع..

«تمت»

مدينة السلام فى ٢٥ أبريل ١٩٩٢

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦١٦١/٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6986 - 2



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة».. وعبر سنوات ستة لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيماناً منا بأهمية الكتاب، وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها، فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة».. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدراً هاماً وخالداً للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة، وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنواناً فى أكثر من ٣٠ مليون نسخة، تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زاداً وتراثاً لا يبلى من أجل حياة أفضل لأبناء الأمة، ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

مكتبة الأسرة 2000

مهرجان القراءة للجميع

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشباب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة